أحمد خيري العُمري

عاجل

سري وشخصي

رسائل قرآنية آن أوان قراءتها

مكتبة
t.me/soramnqraa

عصير الكتب

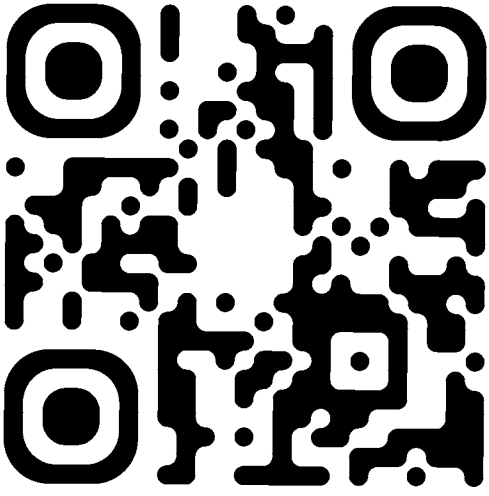

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

عاجل
سري
وشخصي

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان: عاجل.. سري وشخصي ●

● الطبعة الأولى: يوليو 2025م

● رقم الإيداع: 14606/2025م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-525-7

● تأليف: أحمد خيري العمري

● تدقيق لغوي: نهال جمال

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحمد خيري العُمري

عاجل

سري وشخصي

رسائل قرآنية آن أوان قراءتها

عصير الكتب

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى صندوق بريد الرسائل المهملة.
آملًا أن يرفضه.

تنويه

كتبت هذه الرسائل منذ سنوات طويلة لتكون جزءًا من مشروع بصري صوتي يعده الصديق العزيز المهندس طلال قدسي.

بعد البدء بالعمل استشهد بعض العاملين في الفريق، واضطر آخرون إلى الرحيل عن سوريا، مع الملايين غيرهم، فتعطل المشروع كنتيجة حتمية لما حدث.

لا يزال طلال يسعى إلى أن يخرج هذا العمل كأفضل ما يمكن.

أما أنا فأشعر أن العمر يمضي وأن الرسائل تستحق أن تُرسَل.

عودتي المستمرة إلى هذه الرسائل كانت تشبه حوارًا مستمرًّا بيني وبين نفسي، حملتها من مدينة إلى أخرى عبر ترحالي الاضطراري.

اليوم أطلق سراح هذه الرسائل، ريثما تقابل الجمهور في الحلة التي سيقتنع بها صديقي الصدوق طلال قدسي.

أخضر دائمًا

شرس، مثل ضحكات الأطفال عند خروجهم من المدارس.

مضيء، مثل أول شعاع **خرج** من أول شمس خُلقت في الكون.

بريء، مثل طفل وُلد للتَّو.

نقي، مثل قلب أم، تنسى إساءات أطفالها.

حاد وقاطع، مثل منجل، ليلة الحصاد.

حاسم مثل الموت، لا يقبل الاستئناف أو الطعن.

نضر، مثل زهرة خرجت من برعمها توًّا.

نهائي، مثل زلزال لا يبقي، ولا يذر.

متدفق، مثل بركان نفد صبره.

أصيل وجارح، مثل جواد عربي، لم يعرف التهجين.

ولونه أخضر دائمًا، مثل حقولٍ في ربيع لا ينتهي.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

أي شيء هو هذا؟

إنه الإيمان.

الإيمان الذي نظلمه عندما نؤطره في قالب بارد جامد. قالب لا حياة فيه، بينما هو الحياة نفسها. في عمقها، في أعمق معانيها.

نظلمه؟

لا، بل نظلم أنفسنا. نضيع عليها أغلى وأهم فرصة يمكن أن تمر في الحياة.

فرصة الحياة!

***

الكفر، والإيمان نقيضان لا يتلاقيان، ربما إلا في تلك المنطقة التي ينتقل فيها شخص من هذا إلى ذاك. مثل نقطة حدودية بين دولتين – بل بين قارتين متباعدتين، لكن على الرغم من ذلك، هناك ضوابط وقوانين تسهِّل الانتقال بينها.

نعم، هناك الكفر – وهناك الإيمان، كما هناك الشر. وهناك الخير، كما كل الثنائيات العميقة في هذا الكون، الثنائيات التي تحرك سنن التدافع.

لكن، وعلى الرغم من كل الحدود والحواجز بين النقيضين. فإن هناك منطقة أخرى، تجمع، بالتناقض، والاختلاف بينها.

كيف؟ وأين؟

إنها في «الكفر بالإيمان».

وما دام هناك كفر بالإيمان، يكون أيضًا هناك إيمانٌ بالإيمان.

***

كفر بالإيمان؟ وإيمانٌ بالإيمان؟!

يبدو ذلك غريبًا، فقد تعودنا أن يكون الكفر والإيمان مرتبطين به عز وجل.

لكن لا، ليس ذلك حتمًا، وإن كان سيؤدي إليه بطريقة أو بأخرى. لاحقًا.

هناك فعلًا كفرٌ بالإيمان.

وهناك بالتالي، إيمان بالإيمان.

***

ما هو هذا الكفر بالإيمان؟!

إنه ألَّا تؤمن بجدوى الإيمان. إنه ألَّا تؤمن بكل إمكاناته الكامنة، وكل ما يمكن أن يفعله بك وبحياتك وبمن حولك وبحياتهم.

الكفر بالإيمان، هو ألا تؤمن أن الإيمان يمكنه أن يغير حياتك، وبالتالي يغير عالمك.

الكفر بالإيمان، هو أن تؤمن، لكن أن يكون إيمانك مع وقف التنفيذ، فلا يكون غير فكرة لا يرتبط بأي شيء في الواقع. أن يكون ميتًا خامدًا، مثل جثة غادرتها الروح. وليس ثمة أمل في عودة الروح إليها.

الكفر بالإيمان، هو ألَّا تؤمن به، أن يكون مجرد فكرة أخرى في رأسك، لن تحدث خرقًا لا في رأسك ولا في رؤوس الآخرين.

الكفر بالإيمان، هو ألا تؤمن أنه أخضر دائمًا، مهما كان اللون السطحي الذي يخيل لك أنك تراه.

***

لكن هل من دليل من القرآن الكريم على الكفر بالإيمان، أم أنه مجرد رأي؟

لا طبعًا، إنه من القرآن الكريم الذي من دلائل كرمه البالغة أنه يمدنا دومًا بفهم ينير لنا دروب حياتنا الوعرة.

أين؟

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝﴾ [المائدة]. إذن هو الكفر بالإيمان، وقد أدى ذلك إلى أن يحبط العمل.

إذن كان هناك عمل! لم يكن هؤلاء بلا عمل، لكنهم كفروا بالإيمان، فكان أن حبط عملهم.

كيف يكون لديهم عمل إذا كانوا كفارًا؟

لا، فلننتبه هنا، فهذا أخطر.

إنهم ليسوا كفارًا بالمعنى المباشر الذي تعودنا عليه. إنهم كفار بالإيمان. لذلك فقد كان لديهم (عمل ما). لكن كفرهم بالإيمان، كان بمنزلة كفر بالعمل الذي يقومون به.

لماذا كانوا يقومون بالعمل إذن؟

ربما لأنهم تعودوا عليه. ربما ليريحوا ضمائرهم. ربما لم يجدوا شيئًا آخر يفعلونه. ربما لأنه العرف والضغط الاجتماعي، ربما لأن الناس تنظر إليهم. وربما هناك مئة سبب آخر لأن يكون هناك عمل، مع عدم اكتراث به وبجدواه، وعدم الاكتراث هذا، هو جوهر هذا النوع من الكفر بالإيمان.

هذا نوع من الكفر خطير، ما دام سيؤدي إلى إحباط عمل ما.

ما دام سيؤدي إلى الخسارة في النهاية، خسارة هذا العمل تحديدًا على الأقل!

***

ولكن، كيف يمكن لعمل –تقوم به– أن ينجح، أن يحقق مراده، والهدف منه، إن لم تكن تؤمن بأن يمكن لك، وله، أن يصل إلى ذلك؟

كيف يمكن لعمل ما، مهما كبُر أو صغُر، أن ينجح إن كان من يقوم به غير مؤمن بنجاحه؟ إن كان من يقوم به لا يؤمن بما يقوم به، بل يؤديه فقط، أداءً ميكانيكيًّا رتيبًا، بلا روح، بلا إيمان. أداء مجرد عن أي إمكانية لنجاح هذا العمل.

إنه حكم سابق بالفشل، بالإحباط عن العمل.

إنه حكم بالقتل على جنين، قبل أن يولَد.

***

ولو أنك تركت هذا الجنين ينمو ويعيش..

ولو أنك آمنت بما يمكن أن يقوم به هذا الجنين، لو آمنت بكل الفرص الكامنة التي يضمها كل فرد، لربما كبر هذا الجنين ليكون فردًا يساهم في تغيير العالم، في إعادة صنعه بشكل أفضل.

عملك، لو آمنت به، لو آمنت بجدواه، يمكن له أن يساهم في ذلك.

لكن البعض يفضل، ربما دون أن يعلم، أن يكفرَ بالإيمان، ألا يؤمن به وبجدواه.

لذلك فهو يفضل، دون أن يعلم أيضًا، أن يحبط عمله، ويكون في الآخرة من الخاسرين.

***

ولكن ما هو السياق الذي وردت فيه هذه الآية الكريمة.

إنه السياق الذي يصدق فيه هذا المعنى، ويجعله يتفعَّل.

الآية بالضبط هي بين الحديث عن الطيبات من الطعام، والأمر بذكر اسم الله عليه (الآية الرابعة من سورة المائدة)، وبين الوضوء استعدادًا للصلاة (الآية السادسة).

كيف يتفعل الحديث عن الكفر بالإيمان هنا بالذات، بين هذين السياقين؟

يتفعل لأن بعض هذه الأمور ستبدو للعين السطحية المتسرعة بلا جدوى، مجرد شكليات – كما قد يتجرأ البعض.

لكن الإيمان، الإيمان الحقيقي، الأخضر دائمًا، سيضع هذه الأوامر في إطار خصب، في إطار أنه لا بد من جدوى، لا بد من هدف. لذلك فإن ذكر اسم الله على الطعام، لن يكون مجرد كلمة نتلفظها وينتهي الأمر، بل ستكون **تذكيرًا لدورنا في هذه الأرض التي وضع فيها عز وجل ما وضع من متاع لنا، ومن ضمنها كل الحيوانات، وكل الطعام، الذي يحل أكله.**

كذلك الوضوء، سيبدو للوهلة الأولى، أنه مجرد اغتسال، وسيقول من يقول إن ذلك كان ضروريًّا أيام كان المسلمون يعيشون في غبار الصحراء وعواصفها، وإن ذلك صار بأهمية أقل في الوقت الحالي.

لكن لا. هذا كفر بالإيمان، كفر بجدوى تلك الأوامر. الإيمان، الأخضر دائمًا. سيؤمن وبشكل سابق، أن ذلك الأمر بالوضوء له فائدة، له جدوى، قد لا يتبينها على الفور. قد يستشعرها بأعمق مما تعبر عنه الكلمات. قد يجد قطرات الماء في الوضوء كتجديد لطاقته التي تساعده على الانطلاق. على أداء دوره في الحياة.

هذا هو الإيمان بالإيمان.

***

ولونه أخضر دائمًا.

صدِّق ذلك، آمِن به، هذا اللون هو اللون الوحيد للإيمان الحقيقي، إنه بمنزلة هويته، مثل علامة فارقة لا تفارقه.

صدِّق ذلك، ولا تكذِّب عينيك، إن قالت لك إنه بدا شاحبًا، أو مصفرًّا. أو إنه بلا لون.

المشكلة في عينيك حتمًا، ربما كنت مصابًا بعمى الألوان.

أما هو، فلونه أخضر دائمًا. مثل لون الحقول في ربيع أبدي.

***

حلِّق عاليًا، بالقرآن

آيات الله، التي أوجدها عز وجل في الطبيعة، قابلة دومًا لوجهين من الاستخدام الإنساني.

استخدام كما يجب، وبالوجه الذي أُوجِدت هذه الآيات من أجله، في الإعمار، في استثمارها من أجل الإصلاح وصنع عالم أفضل.

واستخدام آخر، يذهب إلى الجهة الأخرى، المضادة لكل ما هو مصلح، قد يكون استخدامًا باهرًا ضخمًا، لكن غايته ليست كذلك.

وهكذا، فإن النار مثلًا، يمكن لها أن تنير العالم، يمكن أن تكون نورًا. ولكن يمكن لها أيضًا أن تكون حريقًا.

وهكذا أيضًا، فإن الحديد، فيه منافع، يمكن من خلالها الإسهام في التشييد والبناء، ولكن فيه بأسًا شديدًا أيضًا، عندما يُستخدَم من أجل التدمير وسفك الدماء.

ويمكن، أيضًا، على المنوال نفسه، للطاقة النووية أن تسهم في جعل العالم أفضل، بتخضير الصحراء، بتحلية البحر، بمسح الجوع والعطش، ويمكن لها أن تمحي مدنًا –بسكانها– من الخارطة كما لو أنها لم تكن.

الأمر إذن لا يتعلق بالآية الكونية ذاتها، بقدر ما يتعلق باستخدامنا لها.

سواء أكان الأمر عود ثقاب، أم الطاقة النووية.

***

ولكن آيات الله ليست موجودة فقط في كتاب الطبيعة.

إنها موجودة في ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل – الكتاب الصالح للقراءة لكل زمان ومكان. الذي يتحدى كل قوانين التغيير والأفول.

آيات الله، موجودة في القرآن أيضًا. والتعامل الإنساني معها هو مثل التعامل مع أنواع الموارد والطاقة الخزينة في الطبيعة.

هناك تعامل مع آية، يمكن أن يكون له أثر الطاقة النووية في استصلاح الصحراء، فتصلح النفس البشرية، وتزيل جدبها وقحطها.

وهناك تعامل إنساني، مع الآية نفسها، له تأثير ونتيجة مختلفة. أقرب إلى أثر الطاقة النووية في التدمير.

كيف؟ هل يمكن لآية أنزلها الله -عز وجل- أن يؤدي التعامل معها إلى نتائج سلبية؟

نعم، حاشا الآية الكريمة، بعض التعامل البشري قد يحدث ذلك.

***

أين مصداق ذلك؟

في القرآن الكريم نفسه.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: 175-176].

إنها الآيات نفسها.

مرة أدت إلى الهبوط، إلى الخلود إلى الأرض، إلى السقوط إليها.

ومرة أدت إلى الارتفاع. الارتفاع بالآيات.

وبين الارتفاع والهبوط، والنهضة والسقوط، خيط رفيع جدًّا. لكنه خيط فاصل جدًّا، كالخيط الذي يفصل بين الليل والنهار، والحياة والموت.

وهذا الخيط، هنا، يرتبط مباشرة بتعاملك مع هذه الآية. فإما أن يكون تعاملًا يحول صحراء النفوس والأراضي إلى حقول مثمرة، وإما أن يكون غير ذلك.

***

إذن، **نتيجة التعامل** مع هذه الآيات، هي التي تحدد مصداقية هذا التعامل – إيجابيته أو سلبيته.

فإذا كان التعامل يؤدي إلى ذلك التثاقل إلى الأرض، إلى الإثباط، إلى القعود، إلى الخلود إلى الأرض، إلى السقوط، إلى الرضا بذلك كله باعتباره قدرًا مثلًا، فإن هذا تعامل موصوم قرآنيًّا، بأنه تعامل (انسلاخ). والانسلاخ هو (الخروج) كليًّا. والخروج هو بالضبط ما نتحدث عنه، فأي قراءة للقرآن الكريم، ستؤدي إلى السلبية والهبوط، هي قراءة خارجة عن كل مقاصد هذا الكتاب العزيز.

***

و (الخلود إلى الأرض) هو التعبير القرآني عن تلك السلبية المزمنة التي تتناقض مع كل ما أراده القرآن منا.

والتعبير القرآني، بالتأكيد، أعمق من أي استعارة لغوية. فالخُلد، تعني (دوام البقاء في دار لا يخرج منها). ومنها الخلود، ومخلدون.

والخلود إلى الأرض هنا، لا تعني انكسارًا عابرًا قد تمر به فيجبرك على هبوط مرحلي إلى الأرض، كما أنها لا تعني نزولًا من أجل طلب الراحة والسكينة، هو بالتأكيد – جزء من متطلبات الطبيعة الإنسانية.

لا، الخلود إلى الأرض، هو بقاء، مع سبق الإصرار والترصد، في القاع، في الأرض. إنه البقاء هناك، الخلود في واقع يجب أصلًا عدم العيش فيه. إنه الرضا بما يستحق التغيير وربما النسف.

الخلود إلى الأرض، مثل الخلود إلى النوم، هو إيمان بلا جدوى عمل شيء، للخروج من الحفرة التي سقطت فيها.

هل هناك خروج، عن القرآن أكثر من ذلك؟

هل يمكن أن يكون الانسلاخ من شيء، أكثر من هذا؟

***

ولو أن الجيل الأول، تعامل مع آيات الكتاب، تعامل الانسلاخ والخلود إلى الأرض، لكان تغير التاريخ كله، بشكل أسوأ طبعًا.

فلو أنهم (خلدوا) إلى أرض واقعهم السيئ، لبقوا بمكة، ولبقيت مكة مجرد مدينة صغيرة على هامش التاريخ، ولبقي العرب –الذين صاروا مسلمين– على هامش الهامش.

لكنهم اختاروا ذلك التعامل الآخر: حلَّقوا بالآيات، فلم يرتفعوا فقط، بل رفعوا واقعهم كله، عالمهم كله، ليكون بمستوى تلك الآيات.

***

وكان التعامل الآخر، هو تعامل عكس الانسلاخ.

وعكس الانسلاخ هو الالتحام.

الالتحام بآيات القرآن، هو الذي يرفع، هو الذي يمنحك طاقة التحليق. يمنحك أجنحةً مثنى وثلاث ورباع، وكل جناح يجعلك تقتحم أفقًا أبعد وأعمق.

ذلك الالتحام المضيء بآيات القرآن، بمقاصدها، بأهدافها، هو ذاته الاستثمار الأمثل لآيات الطبيعة. وهو ما يجب أن يكون.

***

بين الانسلاخ والالتحام، مسافة بقدر المسافة بين الخلود إلى الأرض والتحليق في الأعالي. قد تبدو المسافة كخيط رفيع أحيانًا، لكنها قد تكون شاسعة في حقيقتها، تضم المحيطات والقارات.

ليس التمييز بين الأمرين صعبًا.

فإذا وجدت أن تعاملًا ما، مع آيات القرآن، يجعلك تهبط، يجعلك تسكن في مرتبة دنيا، وترضى بالبقاء فيها، فاعلم أن هذا التعامل إنما ينسلخ عن الآيات. ويخرجها عن سياقها، ولو قُدم لك بماء الذهب وبصوت عذب.

أما إذا وجدت أن تعاملًا ما يرفعك، ينبت لك أجنحةً في ذراعيك، ويمدك بطاقة للتحليق. ويرفع واقعك كله، فلا تتردد، ولا تضيِّع وقتك، ولا فرصتك.

تمسك جيدًا بالآية، بالآيات، بالقرآن كله.

وحلق عاليًا في الآفاق.

والأهم من ذلك: ارفع واقعك، إلى الأفق الأعلى.

***

فِرناندو

فرناندو.

أم هل أناديك فرديناند؟ لا فرق، فرناندو، أو فرديناند، فمنذ أن رأيتك في تلك اللوحة وأنت تمد يدك ليقبلها عبد الله الصغير، وأنا لا أستطيع الكف عن التفكير بك، بكما، بتلك اللوحة.

فرناندو.

لعلك أدركت، أو لم تدرك، وأنت تأمر برسم تلك اللوحة، أنك قد دخلت التاريخ، وأن الزمن سيتوقف عند تلك اللوحة لفترة طويلة. كما تتوقف الصورة في فيلم تشاهده، نضغط على زر الجمود، فتتوقف الصورة. أحيانًا لأنك مشغول ولا تريد أن يفوتك شيء، وأحيانًا لأن الصورة أعجبتك وتريد أن تُملي عينك بها.

ولكن أحيانًا، لأنها آلمتك، لأنها صفعتك، ولأنك تريد أخذ الصفعة إلى مداها.

***

فرناندو. أوقفت الصورة عند تلك اللوحة، ولو كان الأمر بيدي لحاولت أن أمحيها –أن ألغيها– أن أتصرف كما لو أنها لم تكن. البعض يفعل ذلك فعلًا، لكن ذلك لن ينفع، لم يكون سوى إنكار، لن يكون سوى هروب من الحقيقة عبر دفن الذاكرة في رمالٍ متحركة.

فرناندو، أوقفت الصورة عند يدك الممتدة بكبرياء، كبرياء المنتصر، وشفتي عبد الله الصغير تلثمانها بذلٍّ، ذلِّ المهزوم.

فكرت أن تلك الصورة يجب أن تكون في دفاترنا وكتبنا وتحت وساداتنا، يجب أن تكون في ساحاتنا وشوارعنا.

ليس جلدًا للذات، فرناندو، ولا مازوشية وحبًّا في إيذاء النفس.

ولكن ربما لأن «**ترميم الذات**» –إن شئت– سيتطلب ذلك، سيتطلب أن أمعن النظر إلى تلك اللوحة على ما فيها من أذى. عليَّ أن أفعل ذلك.

بعض العلاجات مؤلمة، كما تعلم، فرناندو.

لكن لا بد منها، كما تعلم أيضًا فرناندو.

***

الصورة تقف.

لكن يخيل لي أن تاريخنا أيضًا قد وقف عندها، سواء وعينا ذلك أو لم نعِه.

بطريقة ما، بل بطرق مختلفة، ما تزال يدك ممدودة، ورأسك مرفوعًا بكبرياء المنتصر.

وما يزال هناك منا من يقبِّل يدك، ورأسه محني بخضوع.

الأسماء تغيرت حتمًا يا فرناندو، لكن غرناطة ما تزال تسلم، بطريقةٍ ما، كل ليلة. وليلة سقوطها هي ليالي عمرنا كلها.

***

كأن التاريخ وقف هناك، كأننا دخلنا في تلك الدوامة وعجزنا عن الخروج منها، بل كأننا اعتبرنا أن الدخول في تلك اللوحة والتماهي معها هو الوضع الطبيعي، كأنه قدر لا مفر منه.

البعض استمرأ أن يكون رأسه منحنيًا لتقبيل يدك أو يد فرناندو آخر، البعض أعجبه ذلك، آملًا بحظوة المهزوم عند المنتصر، وبعضنا نظَّر ومجَّد لذلك، وبعضنا قبَّلها، ودعا عليها بالكسر، وكان ذلك أضعف الإيمان.

اختلفت الوسائل يا فرناندو، لكن جزءًا كبيرًا من تاريخنا يبدو كأنه توقف عند تلك اللوحة.

***

ولا ملامَ يا فرناندو، لا لوم عليك بالذات، إنما أنت العدو. وهل يلام العدو على أنه عدو؟ إنما فعلت ما يجب أن تفعله، نكثك لعهودك التي وقعتها يوم سلمك عبد الله الصغير غرناطة إنما يتوافق مع كل قيمك التي يبرأ منها أي دين حتى لو ادَّعيت زورًا الانتساب إليه. كل ما اقترفته، سابقًا ولاحقًا، لا يمكن أن يلام عليه عدو. العدو بالتعريف يفعل ذلك، وبخاصة إذا تجرد من القيم.

إنما اللوم يقع على الطرف الآخر من اللوحة، الذي كان يقبل بذل يدك الممدودة بتكبر.

أتحدث إليك فرناندو، وأنا أضمر الحديث عنه، وإليه. لكني لأسباب مختلفة لا أرغب في الحديث إليه مباشرةً. لا أريد أن أنزلق إلى لومه، كفرد، أو تقريعه كفرد. رغم أن ذلك سهل جدًّا ورغم أن ذلك قد حدث مرارًا.

أدرك تمامًا أن الأمر أكبر منه، وحتى منك فرناندو.

***

هناك **كتاب**، يا فرناندو، ربما أهنته وأهانه جنودك بينما كانوا يسفكون دماء أهل غرناطة ويستبيحون أعراضهم وأغراضهم. ربما

داسه جنودك بأقدامهم، وربما أحرقوه ومزقوه، وربما فعلوا ما هو أكثر من ذلك.

أقول لك يا فرناندو إن من قبَّل يدك، وربما قومه معه، **أهانوا ذلك الكتاب أيضًا**، رغم كل مظاهر التبجيل والاحترام التي قدموها له، أهانوه بطريقة ما، رغم حرصهم على تزيينه وزخرفته، أهانوه، بأن وضعوه على «رفٍّ» ما، في غير موضعه، أهانوه بأن لم يقرؤوه كما يجب، وهل تنزَّل إلا ليُقرأ؟

أهانوه بأن هجروه، أو هجروا معانيه على الأقل.

فكان ما كان.

على الأقل جزء مما حدث كان بسبب ذلك.

***

في ذلك الكتاب، هناك سطر نسميه نحن آية، تلخص كل ما حدث. ويبدو أن من قبل يدك لم يقرأها، أو أنه قرأها ولم يفهمها، أو ربما فهمها ولكن بعد فوات الأوان. ربما فهمها عندما ألقى النظرة الأخيرة على غرناطة، يوم التفت متنهدًا في ذلك الموضع المطل على المدينة، الذي سمي، لاحقًا، «تنهيدة العربي الأخيرة».

ربما كان يفهمها أصلًا، لكن مثل فهمنا نحن: فهم بلا تطبيق. وبالتالي فهم مع وقف التنفيذ: لا يسمن، ولا يغني من جوع.

لعلك تسأل فرناندو عن هذا السطر، عن هذه الآية.

إنها تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وقد كان تغييرًا كبيرًا هذا الذي حدث، الذي جعل من أمير غرناطة يقبل يدك يا فرناندو.

ما كان جدك ليتصور في أقوى أحلامه بأن حاجب أمير غرناطة سيقبل يده، وليسَ أميرَها. وما كان أجداد أمير غرناطة ليفكروا مجرد التفكير بأن واحدًا من سلالتهم سيفعلها.

لكن التغيير حدث. وصار أكبر من أي حلم لأجدادك، وأسوأ من أسوأ كوابيس أجداده.

ولم يكن ذلك مصادفة، ولم يحدث فجأة.

وكانت الأنفس الإنسانية قد مهدت لذلك، قد تغيرت، رويدًا رويدًا وبالتدريج.

إلى أن **توج التغيير بمشهد الإذلال ذاك.**

مشهدك وأنت تمد يدك يا فرناندو، ليقبلها عبد الله الصغير، صاغرًا.

***

والدته أيضًا لم تكن قد وعت تلك الآية، رغم أن التاريخ أنصفها أكثر مما فعل مع ابنها.

فعندما بكى لحظة مغادرته قصره، قالت له أمه: «**ابك كالنساء ملكًا لم تحافظ عليه كالرجال**».

ربما كانت تعبر، بلغة عصرها، عما نقصده اليوم، من تغيير الأنفس. **لكن، هل كانت هيَ خارج الموضوع؟ هل يمكن أن تكون كذلك فعلًا؟ هل يمكن أن نسمح لها بأن تلقي اللوم على ابنها ولا تلوم نفسها أيضًا؟ ألم يكن دورها أصلًا أن تنشئه على غير ما أصبح؟ إذا كان لم يحافظ على ملكه -كالرجال- فمن ربَّاه ليفعل ذلك؟**

كما قلت، الأمر أكبر منه، ومنها، وحتى من عمه، ومن بطانته التي ظلت تسبح بحمد الأمر الواقع وتقول إن كل شيء بخير، ومن حاشيته التي لا يهمها سوى خزائنها.

إنه أكبر من الأفراد كأفراد، يا فرناندو، ولذلك فإن الآية تحدثت عن «الأنفس» –بالمجموع– وليس عن «نفس» واحدة.

فلو كانت المشكلة في فرد واحد، تغيَّرت نفسه، ولو كان ملكًا أو حاكمًا، لما حدث ما حدث. **لأن المجتمع –الذي لم يطاله التغيير– سيجبر الكسر الذي تسبب به تغيير شخص واحد.**

لذلك فإن تلك الصورة التي توقف عندها التاريخ، كانت تعكس حالة أمة كاملة، تغيرت برؤاها ونفسيتها ومفاهيمها، وهبطت من **القمة إلى القاع، وتوج ذلك أنه جاءك ليقبل يدك، فرناندو.**

***

ولو أننا أرجعنا الشريط إلى الوراء، وبحثنا في حيثيات تلك القبلة، وجذور ذلك الانهيار، لوجدنا الترف والغرق في الملذات والتفكك، وصراع الأقارب –العقارب– على احتكار المال والسلطة وكل ذلك كان ينزع من القيم سلطتها ويحولها إلى مجرد هيكل فارغ سينهار عند أول ضربة.

هل يهمك ذلك كله في شيء، فرناندو؟ فحيثيات سقوطهم كانت حيثيات انتصارك، أو على الأقل كانت جزءًا منها. ربما ستهز كتفيك لأن الأمر لا يعنيك، لكن تذكر أن ما أسقطهم، بطريقةٍ ما، سيسقطك لاحقًا أيضًا.

***

فرناندو.

تلك الآية التي لم يعوها، جاءت في سورة اسمها **الرعد.**

بالضبط جاءت قبل الحديث عن البرق، والرعد، والصواعق.

لعلك ستقول إن ذلك محض مصادفة، لعلهم فهموا الأمر كذلك أيضًا، لكن لا، في هذا الكتاب، الذي أهنته، فرناندو، الذي أهانوه، لا شيء على الإطلاق يأتي مصادفة.

ولذلك **فالسحاب، والبرق، والرعد، والصواعق، كلها إرهاصات تنذر بما هو قادم، تتابعها، وتتاليها، وتراتبها، سيجعلك تعرف ما سيحدث لاحقًا.**

وكذلك التغيير –الانهيار– الذي يأتي كحتمية لتغيير الأنفس، إنه لا يأتي فجأة ولا من دون مقدمات، دومًا هناك سحاب يتجمع –في بنية المجتمع– وسيكون هناك صدام اجتماعي يعبِّر عن نفسه أحيانًا بصوت عالٍ كالرعد، وأحيانًا بضياء واضح كالبرق، كل تلك إنذارات كان يجب أن يتنبه إليها المجتمع، لكي يمنع الوصول إلى المرحلة النهائية: الصواعق المدمرة.

لكن ذلك لم يحدث، ظلت الإنذارات تتجمع كسحاب مركوم، وظل الرعد صافرة إنذار، والبرق يضيء مكامن الخلل، **ولكنهم كانوا مشغولين بجدالهم، وبترفهم وبصراعهم على الكراسي والعروش.**

إلى أن جاءت الصاعقة، نتيجةً حتمية **لكل ما لم يحاولوا تغييره.**

***

ثم ماذا فرناندو؟

ثم إن تراتبية التغيير هذه، التي تؤدي من القمة إلى القمامة، يمكن لها أن تعكس، يمكن لها أن تستثمر، لنتسلق **من القاع إلى القمة، لنخرج من تلك اللوحة، ولنعدل من وضع الانحناء الذي جمدنا عليه.**

فالسحاب المركوم يمكن، لو أُحسن استغلاله، لو استُثمر مع نفسٍ تريد استثماره، أن يكون **مصدرًا للماء الأساسي للحياة، يمكن أن يأتي بالخير لأرض طال عطشها.**

وذلك **الرعد، يمكن له أن يكون مصدرًا للنتروجين، سمادًا للتربة، من أجل حصاد قادم.**

والبرق يمكن له أن يضيء الدرب، للحظات نعم ولكنها كفيلة بمعرفتك الطريق الصواب.

حتى الصواعق يمكن لها أن تزيل ما يجب إزالته، من أبنية آيلة للسقوط، مما لا أمل في إصلاحه.

كل ذلك يمكن أن يكون جزءًا من تغيير معاكس، **لو كانت النفس مؤهلة للتصدي له.**

***

سنكذب لو قلنا إن ذلك قد حدث، حتى الآن، فرناندو.

حدثت أشياء هنا وهناك، لكن ليس كما يجب، وبقينا حبيسي اللوحة بطريقة أو بأخرى.

لكن أنصت فرناندو، أنصت جيدًا، هل تسمع الرعد الآن؟ إنه قادم من تلك النفوس التي صارت تؤمن أنه لم يعد ممكنًا البقاء في اللوحة. **دقات القلوب صارت مثل ضربات رعد قادم لا محالة.**

أنصت جيدًا، **الرعد أولًا، وبعدها سيأتي ما يجب أن يأتي، ويحدث ما لا مفر من حدوثه.**

اليوم، أو ربما غدًا، فرناندو.

***

أجمل أيام حياتي

نقول عن أيام معينة من حياتنا إنها "أجمل أيام العمر". قد يكون ذلك استذكارًا لها، وتحسرًا على مُضيِّها، أو قد يكون تكريسًا للحظة نعيشها، نتمنى بطريقة ما لو أنها تبقى بلا زوال.

قد تكون أجمل أيام العمر هذه مجرد أيام لهو وطيش وعبث، حتى لو كان مما نسميه، أو يسميه الناس، لهوًا بريئًا.

قد تكون مجرد أيام كان قضاء الوقت الممتع هو الهدف الأكثر أهمية فيها، بلا مسؤولية، بلا فواتير تركض خلفك، ذلك أنه كان هناك من يدفعها بالنيابة عنك، بحكم سنك على الأغلب. قد تكون تلك الأيام أيام الخطوبة المليئة بأحلام وردية لا تتنازل لتمشي على الأرض. أو أيامًا أولى للزواج قبل أن يمضي شهر العسل. وتأتي أشهر الواقع ومتطلبات التعايش معه وما لم يظهر من الصفات الشخصية التي ربما لم تكن في حسبان شهر العسل.

أيًّا يكن. هناك فترة ما، نقول عنها، إنها أجمل أيام حياتنا، ربما بحسرة وندم على فواتها، وربما باستذكار تلتمع أعيننا فيه، شوقًا لها.

***

لكن أجمل أيام حياتنا، ربما ليست هذه حقًّا.

ربما ليست تلك السهرة على ضوء القمر حتى الفجر. في ذلك المركب أو على ذلك الشاطئ، ربما ليس ذلك الفرح الصاخب الذي توجنا فيه تخرجنا، والتقطنا الصور تذكارًا للفرح والصخب والتخرج معًا.

أجمل أيام حياتنا قد لا ترتبط حقًّا بألا تكون مسؤولًا عن شيء، هذا إذا كان هناك أصلًا وقت بعد بلوغك سن الحلم فيه شيء كهذا.

لا أتحدث هنا عن أن الفرح المجاني الصاخب أمر ممنوع. أبدًا. ليس هذا ما أريده.

لكنني فقط أقول: إن هذه ليست بالضرورة أجمل أيام حياتنا.

***

وإذا كانت نظرتنا التقليدية عن أجمل أيام العمر ترتبط غالبًا بوجود المتعة اللامسؤولة –حتى لو كانت بريئة– أو بوجود أشخاص معينين «نحبهم أكثر من سواهم».

أما أجمل أيام العمر حقًّا، فقد تكون مرتبطة بشيء لا علاقة له بذاك، بل ربما تناقضه.

وهذا الشيء مزدوج، مثل توأمين سياميين ملتصقين، لا يمكن فصل جزء منهما عن الآخر، وإلا كان ذلك يعني موت الاثنين معًا. من هما هذان التوأمان اللذان يمكنهما أن يجلبا لك أجمل أيام العمر؟

واحد منهما اسمه الإيمان، والآخر اسمه العمل الصالح، ومعًا، فقط معًا، وحصريًّا، يمكن لك من خلالهما أن تحصل على أجمل أيام حياتك. حقًّا.

***

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: 97].

العمل الصالح ومعه الإيمان هما ذلك المدخل المزدوج الوحيد للحياة الطيبة. لأجمل أيام حياتنا حقًّا.

و(الحياة الطيبة) هي ذلك التعبير القرآني المعجز، عما نسميه اليوم أجمل أيام حياتنا، مع فارق أن تعبيرنا قاصر لأنه يرتبط بما هو نسبي، فما هو جميل بالنسبة إليك قد يكون غير ذلك بالنسبة إلى سواك.

أما (الحياة الطيبة) فهي أكبر بكثير من مجرد الجمال، فالطيبة تدرجت في القرآن الكريم، من أن تكون (كلمة طيبة) و(شجرة طيبة) إبراهيم 24 إلى أن تكون (بلدة طيبة) سبأ 15. **وبين الكلمة الطيبة التي تبدأ الرحلة، والبلدة الطيبة التي تجسد المثال الأعلى. هناك الجيل الطيب (الذرية الطيبة)** 3 / 38.

فما هو هذا المفهوم إذن؟ إنه كما شبهه القرآن الكريم {كشجرة طيبة}. أي **مثمرة** للفرد والمجتمع، **مثمرة** بشكل إيجابي.

إنها حياة (**إيجابية**) إذن، حياة مع قضية، حياة تحقق الهدف من ذاتها، من وجودها.

ليست الحياة الطيبة حياة رضا وقناعة واكتفاء –كما يوحي فهمنا الحالي– بل هي حياة إثمار وفاعلية. حياة **طيبة** بالمقاييس القرآنية، كشجرة ثابتة، ومثمرة، تؤتي أكلها كل حين.

***

وصفة (الحياة الطيبة) هذه، ليس لها إلا شرطان اثنان: الإيمان والعمل الصالح، هذان التوأمان السياميان الملتصقان اللذان يفتحان لك باب الحياة الطيبة: **حياة الفاعلية والإثمار.**

لكن لماذا يكون الإيمان مع العمل الصالح حصرًا. لِمَ لن يكون مقبولًا الإيمان وحده، أو العمل الصالح وحده؟

***

ربما لأن الإيمان وحده، بلا عمل صالح، سيكون مثل حبر على ورق، مجرد كلام لا مصداقية له، مثل شعار برَّاق أول من يخرقه هو من يصرخ به ليل نهار.

ربما لأن الإيمان وحده، يكون مثل روح هائمة بلا جسد يحويها ويضمها ويجعل لها هيئة وبنية.

هذه فهمناها. الإيمان لا يكتمل إذن إلا بالعمل الصالح الذي سيمنح المصداقية، والبنية، لهذا الإيمان. فماذا إذن عن عمل صالح بلا إيمان؟

أليس هناك من يعمل الخيرات، يتصدق، يساعد الآخرين، يساعد الفقراء والمنكوبين، وهو ليس مؤمنًا، وقد يكون غير مكترث بالأمر كله، أو حتى ملحدًا صريح الإلحاد؟!

هل يعجز عملهم الصالح عن إدخالهم الحياة الطيبة، لمجرد أنهم غير مؤمنين؟ ألم يعملوا (عملًا صالحًا) في النهاية، ما الفرق على أرض الواقع بين عمل صالح دون إيمان وعمل صالح (مع) إيمان. ما دام كله عملًا صالحًا في النهاية؟

الآية واضحة، ربما مفاهيمنا تحتاج إلى إعادة توضيح، لكن الآية القرآنية حاسمة، وهي تشترط الإيمان للدخول في الحياة الطيبة، الإيجابية الفاعلة المثمرة. وإذا كان ذلك لا تنسجم معه مفاهيمنا، فهذه مشكلتنا نحن، وعلينا أن نحلها.

***

لا يوجد (عمل صالح) –أو حتى غير صالح– يكون معزولًا حقًّا عن (إيمان ما).

لا يوجد عمل صالح معزول عن منظومة فكرية تسبقه، وتمهد له، وتكون حبرًا على ورق إن لم تلتحم معه.

قد تكون هذه المنظومة الفكرية لها شكل الأيديولوجيا، أو العقيدة، بكل ما يعني ذلك من أبعاد. قد يكون بعض (العمل الصالح) من صميم أهدافها.

وقد تكون هذه المنظومة الفكرية مرتبطة بنمط حضارة مادية بحتة تعتقد أنها الأفضل، وترى أنها لكي تثبت أنها الأفضل، فإن التصدق هنا وهناك سيكون مكملًا لهذه الصورة.

وقد تكون هذه المنظومة عقيدة شخصية جدًّا، تتألم لرؤية آلام الآخرين، وترى في العمل الصالح مخففًا لهذا الألم، وإراحة للضمير من وخزات هنا وهناك. وقد يكون خلف هذا العمل الصالح، مجرد رغبة شخصية في الظهور بهذا المظهر. إيمان للفرد بذاته، وبأن أناه هي محور العالم.

لكل عمل صالح من هذا إيمان ما.

ولكل منهم (حياة) ما، قد تتحقق بهذا. ربما لا يريدون أكثر من التبشير بعقيدتهم –أو نصرتها– أو إراحة ضمائرهم. أو مجرد الظهور.

سيكون لهم هذا. لِمَ لا.

لكن لا شيء آخر.

ما دام ليس هناك ذلك الإيمان الآخر، الإيمان بأن الله قد كلفك بهذا العمل الصالح، وأنك عبدٌ له، وأن هذه الأرض هي مزرعة للآخرة، وأن

العمل الصالح هو محراثك وبذارك، وأن غلتك هنا. هي، بطريقة ما، غلة الآخرة.

***

لكن هل يمكن أن تساعدهم أعمالهم الصالحة هذه في الآخرة؟ أم أنهم سيتساوون مع من لم يقدم أي خير في حياته؟

نعم ممكن أن تساعدهم.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة].

ما مدى هذه المساعدة؟ كيف ستترجم رؤيتهم لأعمال الخير إلى تأثير على وضعهم؟

لا نعرف. ذلك عنده عز وجل.

الرحمن الرحيم الغفور الودود.

شديد العقاب.

****

مفهوم الحياة الطيبة، في هذه الآية الكريمة لا يتناقض على الإطلاق، مع قراءة سائدة لها، بأنها حياة الآخرة.

على العكس، حياة طيبة بمعنى الإثمار والفاعلية والإيجابية، حافلة بعمل صالح هو مصداق للإيمان، ستتكامل وتتحد مع حياة طيبة في الآخرة، هي ثمن تلك الحياة الدنيوية. إنها حياة طيبة، دنيا وآخرة.

***

لم يفت الوقت قط على أجمل أيام حياتك إذن. إنها ليست تلك الصور المعلقة على الجدران، خلف الإطار. بل إنها إطار كامل لحياة ينسجم

فيها الإيمان بالعمل الصالح. حياة تحقق بها، ومن خلالها، الهدف من وجودك. وتكون فيها شجرة طيبة، لها جذور ثابتة وأصل ثابت، وفرع مثمر في السماء.

ليست أجمل حياتك ذكرى لحياة تمتعت فيها. ليست أيام الخطوبة، ولا حفل التخرج. ولا سهرة على الشاطئ. إنها ليست حياة الطول والعرض.

أجمل أيام حياتك هي تلك التي عشتها ببعدها الأهم. **بعمقها**. إنها تلك التي تمكنت من خلالها أن تكون ما خُلقت من أجله.

هل يمكن أن تجمع بين الاثنين؟ الخطوبة والتخرج والمرح مع العمل الصالح؟ الطول والعرض مع العمق؟

يمكن ذلك بالتأكيد.

ربما الآن. ربما غدًا.

وربما الآن وغدًا، وبعد غد.

الانحياز الإيجابي

بعض الأمور لا يجدي معها الحياد، بل تتطلب دومًا الحسم، الوضوح، إما أن تكون مع، وإما ضد، إما الأسود، وإما الأبيض، لا بين بين، لا لون رمادي هناك..

بعض الأمور، لا يمكن أن تتساوى بالنسبة إليك، لا يمكن أن تمر بها، فتهز بكتفيك لا مبالٍ، كأن الأمر لا يعنيك، لأنه يعنيك فعلًا – يعنيك حقًّا. يعنيك حتى لو تظاهرت أنه لا يعنيك.

بعض الأمور لا يمكنك أن تكون محايدًا تجاهها، لا تحبها، ولا تكرهها، حتى لو أعلنت ذلك وقلته بصوت عال، لأن الحياد في هذه الحالة، سيكون في جانب معين، ولعله سيكون جانب (الضد) أكثر من جهة الـ (مع).

بعض الأمور، ولعلها أهم ما في الحياة، لا تقبل الحل الوسط، لأن الحل الوسط بحد ذاته سيكون مدخلًا لحل آخر، يتلبس غالبًا الجزء السلبي.

لا يمكنك مثلًا أن تكون محايدًا تجاه خطر يهدد حياة أطفالك، لا يمكنك أن تكون "لا معَ"، و "لا ضد" ذلك لأنك إذا كنت كذلك، إذا كنت محايدًا، فإنك ستكون –عمليًّا– تفسح المجال لمن يهدد حياة أطفالك حتى لو كنت نظريًّا تتمسك بحيادك المزعوم في كل شيء.

لا يمكنك مثلًا ألا "تحب" ولا "تكره" بعض الأمور، عندما تكون هذه الأمور تمس صميم وجودك. لأن حالة اللاحب، واللاكراهية هذه، ستجعلك في صف أولئك الذين "يكرهون" والذين يحاربون. حتى لو كنت تدندن حول حيادك الإيجابي طوال الوقت.

بعض الأمور تقبل هذا الحياد، وقد تكون أمورًا مهمة أيضًا، لا شك في ذلك. لكن أمورًا أخرى، بطبيعتها، لا تقبل ذلك: لا يمكنك أن تكون محايدًا حقًا إلا إذا كنت منحازًا سلفًا، سرًا. سواء كان ذلك بكامل وعيك، أو بكامل لا وعيك.

***

والحب والكره هنا ليس مجرد عواطف مسفوحة، تجاه هذا الشيء أو ذاك، بل هما موقف، بالسلب أو الإيجاب تجاه أمر محدد. إنه ليس "مزاجًا" عابرًا – أو عاطفة مشبوبة تأتي بلا سبب، وتخبو مع الوقت.

إنه موقف تجاه موضع الحب، أو الكره. إما أن تكون معه، وإما أن تكون ضده.

وإذا كنت لست هنا ولست هناك، فإنك ستكون مع الضد.

***

لا يمكنك مثلًا أن تكون محايدًا في مشاعرك تجاه من خلقك، تجاه الله عز وجل.

إنه إما أن تحبه، وإما أن تكون "غير ذلك".

وأنا هنا لا أجرؤ أن أقول الكلمة الأخرى – التي هي "ضد الحب". ونعلم جميعًا أن قليلًا من الأشخاص يجرؤون على التصريح بما هو ضد الحب تجاه الله، نعلم أيضًا أن هناك من يصرح بالكفر ضده، من يدعي

أنه لا إله، لكن هذا أمر مختلف، فالكره إقرار بالوجود، لكن مع توجيه مشاعر سلبية تجاه هذا الوجود.

لذلك، قلة هم من يقرون بمشاعر السلب هذه. لكن مع ذلك هناك من لا يكن أي مشاعر، لا بالسلب ولا بالإيجاب.

إنه يحاول أن يكون محايدًا تجاه ما لا يمكن الحياد تجاهه.

تجاه الله.

***

لا يمكنك ألا تحب، وفي الوقت نفسه تدَّعي أنك لا تكره.

لا يمكنك أن تهز كتفيك وتمر غير مكترث.

بعض الأمور لا حياد فيها، إما أن تكون تحبه، وإما لا.

والحب، في النهاية، وفي البداية أيضًا، يحتاج إلى براهين، براهين وأدلة تمنح المصداقية لهذا الحب. تحوله من القول إلى الفعل، ومن الخيال إلى الواقع، ومن أن يكون مجرد مشاعر مسفوحة، إلى أن يكون موقفًا حقيقيًّا.

بلا هذه البراهين، سيكون هذا الحب «لا حبًّا».

ولأننا قلنا إن بعض الأمور لا تقبل الحل الوسط، لا تقبل الحياد، فإن الحب بلا دليل، بلا برهان، هو من هذه الحالات، أي إنه لا حب.

أي إنه كرهٌ. ولو قلنا غير ذلك طوال الوقت.

***

وما هو البرهان على حب الله؟

أي على كونه حبًّا حقيقيًّا، وليس مجرد عواطف مسفوحة، أو أقوال يدَّعيها زوج خائن لزوجته في ذكرى زواجهما العشرين.

بلا مواربة، ومن آخر لآخر، يقول لنا القرآن الكريم ما هو هذا البرهان:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]. إن كنت تحب الله، فلا تتشدق بذلك طوال الوقت، لا تقل كم شغف قلبك بذكر الله، وأنه معك طوال الوقت.

الحب ليس بالكلام.

إنه ببرهان الفعل ومصداقيته.

وبرهان حب الله هنا هو اتباع رسوله عليه الصلاة والسلام.

اتباعه.

نقطة انتهى.

***

الاتباع، هو ذلك الحسم الحازم الذي لا يشوبه تردد.

إنه أقوى حتى من الطاعة، فالطاعة أن تسمع أمرًا محددًا فتنفذه.

أما الاتباع فهو تفويض مطلق. إنه أن تراه يسلك طريقًا فتحسم أمرك وتحزم حقائبك وتتبعه.

إنه أن تنحاز له، ولطريقه، وللدرب الذي يسلكه. أن تتبع خطواته على ذلك الطريق.

***

لكن هذا الطريق ليس مجرد درب سار فيه عليه الصلاة والسلام، بل هو نمط كامل للحياة، تتداخل فيه التفاصيل الصغيرة مع اللافتات الكبيرة، وتتكامل معًا وتتناغم سويةً.

والأمر المهم في الاتباع، الذي هو مصداق حب الله تعالى، ألا نأخذ التفاصيل الصغيرة لننفذها ونؤديها، ولكن عندما نكون نسير في طريق مختلف أصلًا.

التفاصيل الصغيرة لا معنى لها إن لم تكن في طريق مسيرته أصلًا.

الأمر أولًا، هو ذلك الطريق الذي سلكه عليه الصلاة والسلام، الذي اتباعه فيه هو برهان حبه عز وجل.

***

وما هو هذا الطريق، الذي هو أكبر من التفاصيل دون أن يقلل ذلك من أهميتها؟

إنه الطريق إلى تلك الحضارة الأخرى، حضارة لا إله إلا الله، الطريق الذي قد يكون خاليًا موحشًا أحيانًا، وعرًا في أحيان أخرى، لكنه الطريق الذي شقه عليه الصلاة والسلام من قلب الصحراء، إلى بناء ذلك المجتمع الآخر، المبني على قيم الحضارة الأخرى.

وخطواته تلك، على ذلك الطريق، هي التي نتبعها، ونتبعها كبرهان على حبنا الذي هو أكبر بكثير من مجرد عاطفة مسفوحة.

***

يوهموننا، فيتحدثون عن الحياد الإيجابي.

والحق أن أهم ما في الحياة، لا يتحمل الحياد الذي بلا لون ولا طعم ولا رائحة.

بل إن أهم ما في الحياة، يتطلب منك أن تكون منحازًا بلا قيد أو شرط. لكنه الانحياز الإيجابي هذه المرة، الانحياز إلى قيم الخير والحق التي يمثلها ذلك الطريق الذي شقه عليه الصلاة والسلام بيديه الكريمتين.

ذلك الطريق الذي لا يمكنك أن تكون محايدًا تجاهه. فإما أن تسلكه وتساهم في شقه وتعبيده، وإما أن تتركه. وتسلك سبل الآخرين.

لكن تذكر، ذلك سيعني أن حبك لله محض ادعاء، وأن مشاعرك تقع في حقيقتها في الجانب الآخر.

فهل تستطيع أن تحسم الأمر؟ هل ستستطيع أن تكون مع نفسك؟ مع ما يجب أن تكونه؟ مع ما خُلقت لأجله؟

أم أنك ستفضل أن تكون بلا لون ولا طعم ولا رائحة؟

والأسوأ من هذا: هل ستفضل أن تكون ضد نفسك؟

البحث عن الذات

بعيدًا خضت في المحيطات، وعميقًا غطست في قيعانها، بين أصدافها ولآلئها.

رحلت في الصحاري الخالية، وتسلقت أعلى قمم الجبال.

نقبت في باطن الأرض، واستكشفت مجاهل الغابات. وطئت بقدمي سطح القمر، وأرسلت تذكارًا مني إلى المريخ. غزوت الفضاء ونطحت السحاب وقهرت الطبيعة.

صنعت الجنائن المعلقة، وبنيت سور الصين، وشيدت الأعمدة الرشيقة في الأندلس. تطاولت في البنيان هنا وهنا. أقمت برجًا مائلًا هناك. وشيدت قصرًا عجيبًا كالتاج من أجل إرضاء لزوجة هناك.

زرت التاريخ مرات عديدة، بعد أن صنعته بنفسي – أو صنعه أجدادي لا فرق.

تبوأت كرسي السلطان، وعرش الملك، وسدة الرئاسة. وسكنت في مكانة العبد الذليل المستضعف. وكنت أحيانًا بين هذا وذاك، أرنو بأمل إلى كرسي السلطان، ولو بالقرب منه، وأنظر بخوف إلى مكانة المستضعف.

كنت أحيانًا مع أثرى الأثرياء – وأحيانًا ضمن أفقر الفقراء، وأحيانًا أكثر كنت بين هؤلاء وأولئك، أطمع إلى أن أكون مع الأثرياء، وأجاهد كي لا أكون مع أفقر الفقراء.

لم يبق مكان –يخطر في بالي، أو في بالكم– إلا وذهبت إليه.

لكني في خضم ذلك، نسيت أن أذهب إلى مكان واحد كان يجدر بي أن أذهب إليه – ذهبت إلى البحر والجبل والسهل والصحراء، إلى كل مكان يخطر في بالي أو بالكم.

ولكني نسيت أن أذهب إلى نفسي.

***

اهتممت بكل ما يمكن ألا يكون مهمًّا.

اهتممنا بأدق التفاصيل، وأحيانًا أتفهها. كل ما يتعلق بالسطح الخارجي، بالغلاف الذي يحوينا. يمكن للون هذا الغلاف، أو لبثرة ظهرت فجأة عليه، أن تثير قلقنا ومخاوفنا أكثر بكثير من صدع في جوهرنا. قد نساهم فيه بحماس أو بلا مبالاة.

نعم، لقد ذهبنا إلى كل مكان. إلى حيث يجب، حيث لا يجب. **لكن جوهرنا، حقيقتنا، أنفسنا.. شُغلنا عنها بكل ما هو غير مهم.**

***

بين ركام الأقنعة والتفاصيل، نبحث عن ذلك الجوهر، عن تلك الذات.

هل سنفاجأ، أو نُصدم، إذا اكتشفنا أن تلك الذات –بقناعها المبهرج وغلافها البراق– ليست سوى **ذات العبودية**؟

رغمًا عن كل أنوفنا، وكل ألقابنا ومناصبنا، وأرصدتنا وسندات ملكياتنا.. لسنا، في الجوهر، إلا عبيد.

ليس هناك مفر من تلك الحقيقة. مهما حاولنا الفرار، مهما حاولنا تجاهلها.

لست سوى عبد، سواء كان رأسك محاطًا بتاج مرصع بالجواهر أو كنت مهمومًا بالركض خلف لقمة عيالك.

لست سوى عبد، يغض النظر عن كل النظريات التي في رأسك، بغض النظر عن نظرتك لذاتك.

أنت لست سوى عبد.

اسمعها جيدًا. ثلاثة أحرف؛ ع، ب، د.

هذا كل شيء هناك.

عبدٌ، نقطة انتهى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

لكن لمَ يجب أن يكون ذلك محبطًا؟

لقد وضعنا كلمة (العبد) في إطار ذهني معين، وصورة ذهنية معينة، صورة ليست جميلة بالضرورة، ومفارقة لكل قيم الجمال، لذلك، فإن نفوسنا لا تتقبل منا حقيقة أننا عبيد، لأن الصورة النمطية التي ارتسمت للعبد في أذهاننا لا تلائم الصورة التي رسمناها لأنفسنا في الأذهان نفسها.

لكن من قال إن (العبد) في حقيقته يشبه الصورة النمطية؟

ربما سنحتاج أن نعدل من فهمنا لكلمة العبد، لكي نفهم أنفسنا أفضل. ما دامت العبودية هي حقيقتنا الأولى. وربما الوحيدة. خلف كل تلك الأقنعة والأغلفة.

***

على العكس من السائد في أفهامنا، قد يكون **العبد أقصى ذروة يمكن أن يصل إليها إنسان**. وقد تكون العبودية، عندما تكون فعلًا، **مرتبة عليا نحقق من خلالها ذاتنا حقًّا، ولا نكون حقًّا إلا إذا استطعنا الوصول إليها، أو على الأقل حاولنا ذلك.**

***

ولذلك، فقد اقترنت حادثة الإسراء وما تلاها من معراج إلى السماء، بوصف الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه (عبد) لله تعالى.

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1]. لا يتناقض الأمران البتة، بل يتكاملان، الإسراء والمعراج كانتا حادثتين خارقتين وعلامتين شديدتي التمايز في مسيرته عليه الصلاة والسلام ومسيرة المجتمع الجديد والنهضة التي أقامها.

الإسراء منحه -عليه الصلاة والسلام- **ذلك التواصل مع سلسلة الرسل الذين هو خاتمهم النهائي، ومنح ذلك التواصل لرسالته عمقها التاريخي.**

وعندما اجتمع الرسول -عليه الصلاة والسلام- بالرسل الذين سبقوه -عليهم الصلاة والسلام أجمعين- وصلى بهم إمامًا في تلك الليلة التي انكسرت فيها قوالب الزمان، فإن إمامته لهم -عليه الصلاة والسلام- كانت بمكانة ذلك **التجسيد الشعائري لكونه خاتم تلك السلسلة، وقائدها النهائي، وإمام الإنسانية جمعاء كلها بالاستعاضة.**

أما المعراج فقد كان الباب الذي دلف منه عليه الصلاة والسلام، ليس إلى أعلى نقطة وصل إليها هو فحسب، بل إلى أعلى نقطة وصل إليها أي إنسان على الإطلاق. (قاب قوسين أو أدنى) كانت هذه هي النقطة

التي تمثل الحد الأعلى، الذي سيصل إليه أي إنسان، ولن يصل إليها أحد سواه، عليه الصلاة والسلام.

ما علاقة ذلك كله، إسراءً ومعراجًا، بالعبودية؟

علاقته أنه ارتبط بكونه -عليه الصلاة والسلام- **عبدًا لله**. وجاء النص القرآني الذي نقل لنا خبر الإسراء وقد وصف الرسول الكريم بذلك، بكونه عبدًا لله، ليس ذلك مصادفة طبعًا وحتمًا، كما أنه ليس محاولة لموازنة ارتفاع مكانة الإسراء – عبر توصيف (تقليلي) من هذا النوع.

على العكس، كانت **العبودية هي الباب الذي دخل منه عليه الصلاة والسلام لذلك كله**، إلى مكانة الإسراء والمعراج.

لولا هذا الباب لما كان هذا كله، كانت العبودية هي **الدرجة الأولى – والحتمية– التي لا يمكن تجاوزها لذلك السلم المضيء الذي ارتقاه عليه الصلاة والسلام إلى أن وصل إلى الدرجة العليا المستحيلة لسواه -حتى للرسل– درجة قاب قوسين أو أدنى.**

لقد كانت العبودية الحقة هي الدرجة الأولى التي مرَّ الرسول -عليه الصلاة والسلام- عبرها لذلك كله.

ولأنه توغل في عبوديته، في أعماقها، ووصل إلى أقصى ما يمكن الوصول فيها، إلى سدرة المنتهى، قاب قوسين أو أدنى.

تلك المكانة العليا، لم تتحقق إلا عبر تحقيق العبودية الحقة، **كما لو أن العبودية هي الذات العليا، التي يمكن عبر تحقيقها المضيء إلى أعلى ما هو ممكن المضي إليه.**

كما لو؟

كلا! بل هي كذلك فعلًا.

عبوديتك لله -عز وجل- هي التحقيق الأكمل لذاتك العليا.

وعندما تحقق ذلك فإنك ستضع قدمك على الدرجة الأولى نحو الارتقاء إلى فعل ما يجب فعله في هذه الأرض، إلى مكانتك العليا، الموازية لذاتك العليا.

***

كلما كنت عبدًا لله أكثر، كنت نفسك أكثر، وكلما كنت نفسك أكثر، اقتربت أكثر من تحقيق ما خُلقت من أجله.

لن تكون نفسك حقًّا -لن تحقق ذاتك أصلًا- إلا عبر باب العبودية، بحذافيرها وبدقائقها. كلما توغلت في ذلك، أمكنك أن تكون.

كما لو أن الاقتراب من كل ذلك لن يكون إلا بالعبودية، بالمزيد منها.

***

واسجد واقترب.

تلك هي، بكلمتين اثنتين **خارطة الطريق للوصول إلى الذات.**

سجودك له –عز وجل– هو مفتاح اقترابك من نفسك، من ذاتك. من ذاتك الحقيقية طبعًا، **من ذاتك التي يجب أن تكون.**

ووصولك إلى ذاتك. اقترابك منها على الأقل، سيكون خطوة حاسمة في اقترابك منه عز وجل.

اسجد له لتقترب من ذاتك.

كلما اقتربت من ذاتك، من حقيقتك كعبد، ازددت اقترابًا منه.

واقتربت منه أكثر.

جل وعلا..

الرهينة رقم واحد

عندما يُحتَجَز رهائن في مكان ما من هذا الكوكب الذي فقد رشده، ولأي سبب كان، يتصدر الخبر نشرات الأخبار في كل العالم وبكل لغاته، ويتابع الإعلاميون الخبر وتفاصيله، وتُحلَّل أهداف الاحتجاز، وتُتوَقَّع نتائجه ودوافعه. وخبر عاجل تلو آخر، يتابع المشاهدون، في العالم أجمع تفاصيل الحادث والتفاوض، يترقبون النهاية السعيدة أو غير السعيدة، كما لو كانوا يشاهدون فيلمًا من أفلام التشويق والترقب.

ربما يكون الاحتجاز قد وقع بلا تخطيط: مجرد حادث سرقة تطور ليصير احتجازًا. وربما يكون قد خُطط له بإتقان، وجرى كل شيء حسب الخطة المرسومة سلفًا. ربما يكون هدف الاحتجاز مجرد الحصول على المال، وربما يكون من أجل الإفراج عن مجرمين يقضون فترة عقوبتهم العادلة، أو من أجل لفت الانتباه إلى قضية عادلة، إلى قضية شعب قيد الاعتقال.

كل هذا قد يحدث، ولكن كله أيضًا خارج الموضوع.

***

وعندما تستمتع بمشاهدة فيلم من أفلام الرهائن، فإن تمتعك سيتضمن حقيقة أنك مجرد مشاهد، وإن نصيبك من كل تلك الأهوال التي يتعرض لها الرهائن على الشاشة هو المشاهدة فقط.

أي إن ذلك يحدث لك، وليس لهم.

***

لكن هذا كله يجب ألا ينفي حقيقة أنك قد تكون رهينة أيضًا، رهينة دون أن تعرف. لأن خبر اختطافك واحتجازك لم يتصدر نشرات الأخبار.

وربما لأنه خبر قديم، ولأنك اختُطفت منذ أن ولجت هذا العالم، فإن أحدًا لا يكترث إلا للأخبار العاجلة.

وربما لأنك لست وحدك في هذا، والكل معك بطريقة أو بأخرى، مما يجعل من الخبر مفتقدًا لإثارة التميز.

وربما أيضًا لأن القائمين على وسائل الإعلام لا يريدون أن يتعاملوا مع تلك الحقيقة.

لذلك تراهم يركزون على إنسان واحد، إذا احتُجز رهينةً.

ويتجاهلون احتمالية أن النوع الإنساني كله ربما يكون رهينة.

***

ودومًا كان الإنسان رهينة لشيء ما. وإن حاول تجاوز ذلك وتجاهله. لكنه كان دومًا مرتهنًا –ومحتجزًا– لهذا الشيء أو تلك الجهة.

وكان كل خاطفيه –يحرصون على إبقائه داخل نطاق احتجازهم له، رغم أنهم هم أيضًا– رهائن أيضًا.

***

في شوارع مكة وأزقتها وساحاتها، كان إنسان الجاهلية «**رهينة**».

كان رهينة عند عشيرته، عند أعرافها ومفاهيمها وتقاليدها. لا يمكنك أن تعيش في الصحراء وحيدًا –لا بد من «العشيرة»– وإلا كنت فريسة سهلة للصحراء، لطبيعتها القاسية، لوحوشها وضواريها، أو لعشيرة أخرى ستفترسك ما دمت خارج نطاق التوازن مع عشيرة أخرى.

إنك لا «**تكون**» أصلًا -في مجتمع الجاهلية- إذا لم تكن رهينة لعشيرتك -وعشيرتك أصلًا رهينة لقوتها بين العشائر- في خضوع لقانون الصحراء السابق الذي يهمشك كفرد. ويمنعك من أن تحقق كينونتك إلا في إطاره.

كان هذا مستمرًا منذ أن تكونت جاهلية الصحراء.

وكان يمكن أن يستمر لقرون أخرى.

لولا أن حدثت عملية تدخل سريع، أنقذت الإنسان، من كونه رهينة للصحراء.

كانت عملية تدخل حاسمة، ونظيفة، مثل عملية جراحية استؤصل فيها الورم الخبيث، اجتُث فيها من جذره.

وتحرر الرهينة من كل مختطفيه، من كل قيوده، من كل الأعراف التي جعلته محتجزًا.

كانت عملية تحرير مشهودة، جرت للمرة الأولى في شوارع مكة، وبطحائها. في بيوتها ومنتدياتها.

ومن يومها وعملية التحرير هذه جاهزة لإنقاذ أي رهينة، بالآلية نفسها والشروط نفسها.

المرة الأولى كانت في مكة، ولكنها كانت دومًا قابلة للتكرار.

لأن ليس إنسان الجاهلية وحده رهينة، بل إنسان أي منظومة حضارية تسلبه إنسانيته وكينونته.

وهذا حدث وبقي يحدث مع تغير الأزمان وأدوات السلب التي أصبح بعضها يحمل شعارات توحي بعكس ما تقوم به.

***

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: 21].

﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: 38].

كانت هذه هي ببساطة شديدة، وبعمق شديد، آلية فك الأسر التي اعتمدها القرآن الكريم.

***

لكن للوهلة الأولى، هذه الآية لا تفك أسر ورهن أحد، بقدر ما سترسخ هذا الوهن، إنها تقول: إننا رهائن، فعن أي تحرير للرهائن نتحدث؟

هذا هو بالضبط. إنك دومًا رهينة بطريقة ما. أفضل عملية تحرير لك، يمكن أن تحدث، هو أن يفكَّ أسرك من محتجزيك العابرين، وتُسلَّم **لما يجب أن تكون رهينة له.**

والآية نسفت كل ما احتجز الإنسان الجاهلي، وجعله رهينة عنده، لم يعد أسيرًا لحسبه ونسبه منذ اللحظة التي يولد فيها.

الآن، فك أسره من كل ذلك، من كل ما يستلب منه -بشكل سابق- حقه في أن يكون.

الآن، صار أسيرًا **لعمله. لما سيفعله في هذا العالم. لم يعد هناك ما يجعل إنسانًا يتميز عن الآخر فقط لأنه وُلد في موقع آخر وزمان آخر.**

إنها نقطة انطلاق موحدة للجميع. وأنت رهينة لعملك، وعملك فقط.

***

يخطئ من يظن أن هذه كانت قفزة **كبيرة فقط في إطارها التاريخي الذي حدثت فيه.**

أبدًا. إنها قفزة كبيرة –ومنصة انطلاق هائلة– في كل زمان ومكان. **كل ما في الأمر، أننا يحلو لنا أن نتصور أن حريتنا اليوم هي تحصيل حاصل، وأن عهد العبودية قد انقضى بتطور المجتمعات الإنسانية.**

لكن الحقيقة هي أن أساليب الاحتجاز قد تغيرت فقط. نوعية القضبان وأشكالها تغيرت فقط.

أما جوهر الاحتجاز فظل واحدًا، ربما ذهب مفهوم العشيرة في بعض المجتمعات، لكن القوالب الحضارية ما تزال تحتجز الأفراد داخلها كرهائن، تقسرهم داخل نمط معيشتها –وحياتها– وتحتم عليهم أن يكونوا ضمن توقعاتها وحدودها، حتى «الإنسان المعاصر» الذي يصحو ويغفو على شعارات الحرية الشخصية والفردية، سقط في **أسر قالب الحرية الشخصية، وصار رهينةً عندها، ورهينة عند وسائل الإعلام التي تحدد له مجموعة من الخيارات، عليه أن يختار من ضمنها.**

«الإنسان المعاصر» أيضًا رهينة، حتى لو أنكر ذلك وحتى لو رفضه. وما تزال الطريقة الوحيدة الناجحة لفك أسره هي نفسها تلك الطريقة التي غيرت مصير الإنسان الجاهلي.

إنها أن تخرج من أسرهم..

لتكون رهينةً لعملك، لما كسبت.

***

أجمل ما في الأمر أن أحدًا لا يمكنه أن يتفاوض عنك، ليفك رهنك.

لن تقدم دور الضحية السلبية الذي يقضي الوقت في انتظار الفرج وهو يبتهل إلى الله أن يعجل فَرَجه.

لا.

ذلك بالذات سيزيد من وضعك سوءًا.

ليس أمامك سوى أن تتفاوض بنفسك.

والتفاوض لن يكون إلا بأن ترسخ كونك رهينة، لكن أن تعمل على أن تكون رهينةً لعملك الإيجابي.

ليس لديك سوى هذا. إنك رهينة بكل الأحوال، إما أن يكون عملك سلبيًّا – تافهًا – سطحيًّا – وإما أن تكون أصلًا بلا عمل، حتى لو امتلكت شهادة ووظيفة، لكن عملك لم يحدث فرقًا لا عندك ولا عند الآخرين، لم يكن سوى بطالة مقنعة.

أي إن كسبك «عملك» لم يتحول ليصير كسبًا للعالم، بل صار خسارة للعالم أو أنه على الاقل لم يحدث فرقًا، عندها سيكون وضعك كرهينة غير ما تحب بالتأكيد.

أو أن تكون في الجهة الأخرى من كل ذلك، تستجمع زمام ذاتك لتفعل إرادتك، لتجعلها تلتحم بالعالم في فعل يغير هذا العالم.

هذا هو. أنت رهنٌ لهذا. لا نسب ولا حسب، ولا عرق ولا لون. لا مجرد شهادة جامعية على حائط امتيازاتك الشخصية. ليس قائمة ممتلكاتك، ولا رصيدك في البنك.

إنه ما كسبته وكان كسبًا للمجتمع ككل. إنه ما كسبته، فصار كسبًا لعالم لم يعد كما كان قبل أن تكسب، قبل أن تعمل.

هذا هو فك أسرك وإطلاق سراحك من كل وسائل احتجازهم.

لتكون رهينة عملك فحسب.

السير على زجاج مطحون

يقولون لنا غالبًا: إن العبادة تريحنا، تخفف من أعبائنا في حياة متعبة، حياة نلهث فيها خلف أشياء مختلفة، من لقمة عيشنا إلى حليب أطفالنا إلى عكاز أمراضنا. حياة مليئة بالتنافس المضطرم، الصراع فيها هو القانون، والتنافس فيها هو المقياس.

هنا تكون العبادة مثل كوة ننعم فيها بالسكينة، منسحبين إليها من عالم الصراع وإرهاقه. من شجونه، ومن اضطراباته.

يحدث ذلك فعلًا أحيانًا.

ويُروَّج لنا ذلك دومًا.

تبدو العبادة وسيلة لتخفيف الضغط، مثل **صمام أمان** ننفس من خلاله تراكمات تعتمل في داخلنا، كي لا نصل إلى حد ننفجر فيه.

ربما يفلح ذلك في تخيف الضغط أحيانًا.

وربما لا.

لكن ثمة مشكلة في ذلك كله.

مشكلة كبيرة.

***

العبادة هنا وسيلة لتخفيف الضغط، لجعل الاستمرار أكثر يسرًا وسلاسة.

والعبادة يمكنها أن تقوم بذلك بالفعل، ليس دومًا، وليس مع الجميع، ولكن ذلك بالنسبة إلى كثيرين أداة من أدوات استمرارهم في مواجهة الحياة.

لكن العبادة أصلًا قُدمت لنا في القرآن على أنها الهدف من وجودنا، الهدف من خلقنا.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

فكيف صار الهدف مجرد وسيلة لتخفيف الضغط؟ كيف صار الهدف صمام أمان الانفجار، أو تأجيلًا له؟

في الغالب هناك مشكلة ما في فهمنا.

ولأن الأصل هو النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل من أي مكان، بينما يمكن للباطل لا أن يأتي أفهامنا فحسب، بل أن يستوطن فيها.

ولا بد لأفهامنا أن تتشكل إذن حسب النص.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

***

لكن، ومن البدء، من قال إن العبادة محصورة بذلك الشكل الشعائري الذي تعودنا عليه. إنها موجودة هناك طبعًا وقطعًا، لكن ربما هي تتجاوز ذلك لتشمل حياتنا كلها.

وربما معناها العام والشامل هو الذي يمكن أن يساعدنا لفهم لِمَ خُلقنا من أجل أن نعبد، يساعدنا في فهم لماذا نحن هنا في هذا الكوكب.

***

بين العبادة، بمفهومها العام الشامل، **والتعبيد**، تعبيد الطرق علاقة تتجاوز علاقة التشابه بالألفاظ. فالأصل واحد، والفعل عَبَد يعني الخضوع والإذلال، والطريق يتعرض لإخضاع من نوع ما، بحيث يعاد تشكيله وصبه، بحيث يصير معبدًا.

هل يذكرنا هذا بشيء؟

أليست العبادة -بمعناها العام والشامل- بتعريفها بكونها (اسم جامع) لكل ما يحبه الله ويرضاه تشبه هذا **الطريق المعبَّد أيضًا نحو كل ما يريده الله ويرضاه.**

أليست العبادة هي هذا الدرب الذي نعبده ونمشي فيه في آن واحد خطوة خطوة، نحو ما أمرنا الله به، نحو ذلك العالم الذي أمرنا أن نصنعه.

***

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [العنكبوت: 56].

إنهم عباده، عز وجل، وهو، جلَّ وعلا، يناديهم بذلك.

لكنه يشير لهم، إلى أن **العبادة ليست، ولن تكون، محصورة في صوامع منعزلة في قمم الجبال، أو ما يوازيها ولو كان في زحام البشر والشوارع، عبر القطيعة والعزلة التي يختارها بعضهم زهدًا فيما يتصورونه أنه قد يبعدهم عن الله -عز وجل-.**

ولكن ها هو النص يأخذهم من عزلتهم **إلى «أرض الله الواسعة»** التي يجب أن ينتشروا فيها، **ليتعبدوا من خلال إصلاحها، من خلال إعمارها لتكون أقرب إلى ما يريده الله منا.**

وإنها أرض واسعة، لذا لا وقت هناك للابتعاد عنها، لا بد من جعلها **كلها تُعبَّد لتصير دربًا نحو كل ما أمر الله به.**

وإنها أرض واسعة، وحياتنا بالكاد **ستكفي لتعبيد جزء يسير منها، وكل ما هو نحن، كل ما يهم في النهاية، هو إسهامنا في ذلك، في تعبيدنا لتلك الأرض، في جعلها طريقًا ممهدًا لذلك العالم الذي يجب أن يكون.**

سنعبِّد تلك الأرض الواسعة، وسنكون أداة للتعبيد وجزءًا في الوقت نفسه من الدرب، نعبِّد أنفسنا، سنكون نحن الطريقة تارة، نعبِّد ذواتنا، ونكون نحن المعول الذي يعبد الطريق تارة أخرى.

إنها الأرض الواسعة، ونكون نحن الوسيلة أحيانًا، ونحن الهدف في أحيان أخرى.

***

حياتنا يمكن أن تختصر بأنها المسافة بين نقطتين. نقطة الانطلاق، ونقطة الوصول، نادرًا ما تكون المسافة بين النقطتين يسيرة، ومفروشة بالورود. لا يمكن أن تكون اختبارات الحياة المصيرية جدًّا يسيرة جدًّا،

والوصول إلى النقطة الصواب قد يتطلب أن يكون الدرب صعبًا، وشاقًّا، ومفروشًا أحيانًا بالزجاج المطحون. ليس ذلك من متطلبات الرحلة بالتأكيد ولا برهانًا على صحتها، لكنها في الغالب جزء من حقيقة الأشياء، من قدر المرحلة.

التعبيد ليس أمرًا يسيرًا على الإطلاق.

أحيانًا تكون الأرض صخرية، وعليك أن تخمش بأظفارك لتحفر فيها. وأحيانًا تكون الأرض رملية، تبدو سهلة، لكنها لن تحتمل عبء التعبيد.

أحيانًا تكون الأرض رخوة، ما إن تبدأ بالتعبيد حتى تخسف بك.

وأحيانًا ستضطر إلى التعبيد على فوهة بركان، أو على حافة زلزال.

ليس التعبيد أمرًا يسيرًا على الإطلاق.

أحيانًا ستكون الأرض مفروشةً بالزجاج المطحون، وتكون قدماك عاريتين، وستضطر إلى الزحف على الزجاج وأنت تعبِّد الأرض بيدك. من قال إن العبادة بمفهومها الشامل والعام أمر يسير؟ من قال إنها تشبه النزهة، أو صيد الفراشات؟

كلا. بل ربما تشبه صيد التماسيح، أو مصارعة الديناصورات، أو التناطح مع غيلان الأساطير..

العبادة ليست صمام أمان عابرًا، بل هي وسيلة لتحقيق الأمان الحقيقي. ولو على المدى البعيد، الذي لا يمكن النظر المباشر إليه.

***

وتلك الديناصورات، وغيلان الأساطير، ليست بالضرورة ظروفًا خارجية علينا أن نجتازها في رحلة التعبيد، إنها ليست بالضرورة «آخر» يحاول عرقلة مسيرتنا وتعبيدنا للطريق، قد تكون غيلان الأساطير موجودة في أعماقنا، وقد تكون التماسيح تسبح في مستنقعات نفوسنا، وقد تكون الأشواك في الداخل أقوى جذورًا من أشواك الخارج.

وقد تكون حافات الزجاج المطحون في داخلنا أكثر حدة. قد تكون مسننة ومسمومة وتزرع القيح في كل خطوة.

رغم ذلك كله، فإنه لا بد من الخوض فيه.

لقد خُلقنا من أجل ذلك.

***

أرحنا بها يا بلال.

الصلاة هنا ليست صمام أمان، بل هي حقنة من القوة والنشاط والطاقة لمواصلة الطريق على مصاعبه.

ليست الصلاة هنا كوة للانسحاب من العالم، من أجل الهدوء والسكينة، بل هي عماد الدي، الذي يصير عمادًا لشخصية الفرد والمجتمع.

نعم، **أرحنا بها يا بلال**، فدرب العبادة شاق أحيانًا، يدمي الأقدام عندما تسير عليه، ويدمي الأيدي عندما نعبِّده بها.

أرحنا يا بلال، فالدرب طويل والعبء كبير، **وأرض الله الواسعة تحتاج إلى كل أيدينا لكي نعبِّدها. وهذا هو امتحاننا الأرضي، خُلقنا من أجل أدائه، وسنُحاسب، يوم نُحاسب، عليه.**

أرحنا بها يا بلال، فنحن متعبون لأننا بشر، ولأن المهمة التي أوكلت إلينا ليست يسيرة، كما هي كل الأمور الأساسية في الحياة.

أرحنا بها يا بلال، نحتاج إليها لكي تمدنا بوجبة من الطاقة من أجل المواصلة، المواصلة على ذلك الدرب الذي لا مفر من السير عليه إذا كنا نريد أن نصل حقًّا إلى ما ينبغي الوصول إليه.

أرحنا بها يا بلال، فقد خُلقنا من أجل تعبيد الدرب. والتعبيد شاق، ويحتاج إلى الصلاة.

***

العجلة، أحيانًا، من الرحمن

يحذروننا منها.

يقولون لنا: في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة. يحثوننا على التأني والتروي، ويحذروننا من عواقب العجلة، ومن مخاطرها.

يصورون الأمر دومًا كما لو أن العجلة مرتبطة بخرق قانون ما، بتهور، بطيش.

وكما لو أن التأني دومًا مرتبط بالحكمة والنضج والتعقل.

والأمر أحيانًا صحيح.

ولكن ليس دومًا بالتأكيد.

فالتأني أحيانًا، يكون ترددًا قاتلًا، يكون حسمًا مؤجلًا في أمور لا تحتمل التأجيل.

التأني أحيانًا يكون تبريرًا للتسويف، تسويفًا للتأجيل، وقد تضيع حياتك كلها وأنت تتأنى في هذا الأمر أو ذاك، وقد تمر حياتك وأنت تتأنى، ويضيع العمر كله تحت شعار أن في التأني السلامة.

***

«النار الهادئة» قد تكون هي الأنسب لطبخة ناجحة.

لكنها ليست دومًا مناسبة لتكويننا الشخصي.

«النار الهادئة» قد تستغرق أعمارنا كلها قبل أن نصل إلى ما يجب الوصول إليه.

الحياة الحقيقية، خارج المطبخ وكتب الطبخ والوصفات الجاهزة، تحتاج أحيانًا إلى «نار غير هادئة».

هل سيؤدي ذلك إلى الاحتراق؟!

ربما، أحيانًا.

لكن المهم، أن يؤدي ذلك إلى «**إحراق المراحل**».

***

هل يمكن أن نقول: إن في التأني السلامة، بينما البيت يحترق مثلًا؟

هل يمكن أن نقول: إن في التأني السلامة، بينما البناء يوشك على الانهيار؟

هل يمكن أن نقول: إن في التأني السلامة، بينما صافرات الإنذار تعلن الخطر، إننا يجب أن «نفرَّ بجلودنا على نار هادئة»؟

لا طبعًا. هناك **ستكون في التأني الندامة، وتكون في العجلة السلامة.**

***

وفي حياتنا دومًا لحظات «مفصلية» تدق فيها صافرات الإنذار. تنذر بالخطر القادم لا محالة. وتلك اللحظات لا سلامة فيها إلا للعجلة.

لا مجال للتأني فيها. أي تردد سيكون معناه أن الخطر قد اقترب أكثر، وأكثر، وأن فرص النجاة تقل أكثر فأكثر.

***

متى يحدث ذلك بالضبط؟

متى يدق جرس الخطر ذاك؟

إنه يدق دومًا، لكن البعض يؤخر سماعه. والبعض لا يمتلك الأذن التي تسمعه، أو أنه يمتلكها ولكنه يتغاضى عن السماع، أو أن «الوقر» في أذنيه يمنعه من السماع، أو أنه بملء إرادته ووعيه، قد وضع أصابعه في أذنيه. أو أن البعض يتعايش مع صوت الإنذار، ويعتبره جزءًا من خلفية لا معنى مباشر لها.

كل ذلك يحدث، ولكن في لحظة ما.. قد يتمزق غشاء التعود فنعود نسمع، وإذا بصافرة الإنذار تحفر في وعيك مثل إسفين كهربائي. **وعندها، لا بد من العجلة.**

***

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه: 83-84].

هنا العجلة لم تكن من الشيطان، هنا العجلة كانت من أجل الرحمن، كانت للرحمن.

هنا العجلة كانت جالبة للسلامة.

كانت «حرقًا للمراحل» من أجل الوصول إلى الهدف.

وعجلت إليك رب لترضى.

***

ولم يكن الشوق إلى الله، وحده هو دافع تلك العجلة، بل كان أيضًا ذلك الإحساس الداهم بالخطر، بالحاجة إلى الفرار من واقع سيئ يوشك على الانهيار.

كانت العجلة مدفوعة بذلك الإحساس **أن الاستمرار في الوضع الراهن** لم يعد ممكنًا.

وإن صافرات الإنذار التي لم تكف قط عن الإنذار صارت مسموعة فجأة.

***

لم يكن «الوضع الراهن» شيئًا مستجَدًّا.

كان قد استمر لعقود طويلة، وربما حتى لقرون. وكان وضعًا سيئًا بالمقاييس كلها: عبودية وذلٌّ عاشهما بنو إسرائيل في تلك الفترة.

كان استلاب وسلبية بني إسرائيل قد جعلتهم يتعودون على ذلك الوضع، بكل ما فيه من جبروت واستبداد: **إن موقعهم بوصفهم أدنى الأمم، وموقع آل فرعون بوصفهم أعلى الأمم، هو حتمية لا سبيل للخروج منها أو تغييرها.** لعلهم كانوا يقولون، كما يقول غيرهم **في عصور أخرى، لا فائدة من المحاولة، لقد سبقونا بمراحل. إنهم الأعلى دومًا. الحضارة والتقدم سيكونان دومًا احتكارًا لهم، والقيم ستكون دومًا قيمهم.**

كان ذلك هو الوضع الراهن، ولم يكن راهنًا بشكل مستحدث، لقد كان متراكمًا منذ قرون. وقد ظلوا متقبلين له باعتبار أن لا مجال لتغييره. ثم جاء **الوحي** ليغير كل ذلك، ليجعلهم ينتبهون إلى أن ذلك كله يجب أن يتوقف. جاء الوحي ليسهل لهم الخروج من واقع لم يعد ممكنًا الاستمرار فيه.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: 77].

وهل هناك درك يمكن أن يخاف أو يخشى لمن تعود على العيش في ذلك القاع؟

كان الخروج ولو إلى البحر –ولو عبر البحر– أهون، كقرار، من قرار البقاء في ذلك الواقع الذي كشف الوحي –فجأة– كم كان سيئًا.

كان الخروج هو ذلك الفرار الذي يجب ألا يتأنى فيه أحد، وإلا كان في ذلك التأني الندامة.

إذا كان الانقراض يمنح مجالًا للندامة.

***

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 83]؟

ما الذي جعلك تتقدم عنهم هكذا؟

ها هم أولاء على أثري.

ذلك أن عجلة موسى، وتعجله، لم تكن ويجب ألا تكون حادثًا فرديًّا معزولًا عن الحراك الاجتماعي. فعجلة موسى وإسراعه في خطاه إلى الطريق الحق إلى الله -عز وجل- كانت مثالًا ونموذجًا لكل قومه. من أجل أن يعجلوا هم أيضًا على أثره.

كانت عجلة موسى أبعد ما يمكن عن الفردية، كانت «عجلته» من أجل تحريك **عجلة المجتمع ككل.**

ربما لم يكن المجتمع موازيًا لعجلته، ربما لم يكن بنو إسرائيل أولاء على أثره. لكن المهم هو أن تحاول.

أن تجعل المجتمع يتحرك، عبر عجلتك أنت.

***

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[1].

لكنكم تستعجلون.

ها هو عليه الصلاة والسلام ينهى عن الاستعجال.

الرجل الذي غيَّر العالم في أقل من عقدين. رقم قياسي بكل المقاييس التاريخية وغير التاريخية، ورغم ذلك فإنه ينهى أصحابه عن الاستعجال في لحظات شديدة الصعوبة والوطأة.

وبين العجلة والاستعجال فرق كبير، فرق يخرق لب المعنى الإيجابي في العجلة التي هي من الرحمن. العجلة من الرحمن تفهم الواقع لتحدد اللحظة المناسبة التي يمكن فيها اللحاق بعجلة التاريخ، والاستعجال هو الركض خلف نهاية مؤسفة تحت عجلة التاريخ.

العجلة تعني أن تقوم أنت بما يجب القيام به، أن تحرق المراحل، وتحرق القيود التي تحيط بيديك وبإرادتك في اللحظة التاريخية السانحة. أما الاستعجال فهو أن تعجل بنهايتك ببداية خاطئة في لحظة الخطأ ودون أن تمتلك الأدوات.. أن تطلب من الآخرين أن يقوموا بذلك

(1) صحيح البخاري 3612.

نيابة عنك، أو أن تدعو الله أن يفعل ذلك، دون أن تقوم بما تتطلبه الإجابة.

الاستعجال هو أن تنتظر على أحر من «الجمر»، أن تبدأ بأي تغيير كيفما كان، فينتهي الأمر بالتحسر بالمزيد من الجمر.

العجلة هي أن تفهم الواقع تمامًا وتقوم بما يجب عليك القيام به في الوقت المناسب.

العجلة هي أن تحرك عجلتك، وعلى الطريق الصحيح، وفي الوقت الصحيح.

***

لكن ماذا كان عليه الصلاة والسلام يفعل عندما طلب منه خباب ما طلب.

كان يخطط لإنقاذ المؤمنين مما ينالونه من عذاب مشركي مكة. القريشيون يطلبون الحماية من عشائرهم. العبيد يشترون، أم الموالي، ممن لا يجدون الحماية ولا يمكن شراؤهم لأنهم ليسوا بعبيد، فقد أباح لهم إظهار الكفر كي يكف المشركون عن أذاهم.

أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا وَرَاءَكَ؟» قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تُرِكْتُ حَتَّى

نِلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ قَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ»[1].

خباب كان يريد معجزة من السماء تصيب مشركي مكة لتكف أذاهم.

(1) المستدرك على الصحيحين 3362.

لكن لا..

هذه المرة، مع الرسالة الخاتمة، لن يكون هناك هذا النوع من العذاب..

ولذلك ستكون الخاتمة مختلفة..

*****

وعجلت إليك رب لترضى.

لن أقضي حياتي في انتظار فرصةٍ لن تأتي. لن أترك عمري يتسلل من بين أصابعي وأنا أقول إن الوقت لم يحن بعد. لن أدع آليات التعود تبلد شعوري بالخطر. لن أدع الوقر في أذني يمنعني من سماع صافرة الإنذار التي تقول لي أن أعجل.

لا. لن أرضى بأن تتكلس حواسي، أن ينمو العنكبوت على إرادتي، لن أرضى أن تمضي حياتي وأنا أسوِّف، وأؤجل.

لقد عجلت إليك ربِّ، لترضى.

وكما كانت «العجلة» أهم مخترع أنجزته الإنسانية منذ أن اخترعت الأبجدية، فإن عجلتي إليك، ربِّ، ستكون إنجازي الأهم، والأكثر فاعلية وإثمارًا في رحلة حياتي.

من أجل أن ترضى.

***

الكادحون في الأرض

بعض الكلمات، ترتبط في أذهاننا بمعانٍ محددة.

فإذا ذُكِرت تلك الكلمة في أي سياق كان، ومهما كان مختلفًا عن المعنى المحدد، فإن الكلمة بحد ذاتها تقوم بعملية (استدعاء) لكل ما يرتبط بها، بطريقة تأخذ السياق الجديد، إلى وجهة أخرى قد تكون مختلفة تمامًا.

قد تأخذك بعض الكلمات، وهي معبأة بصور ذهنية معينة، إلى حضن أمك البعيد، في زمن غاب عنك، وغاب معه دفؤه وأمانه، قد تأخذك كلمة إلى رائحة ما، رائحة تسكن بعبقها أعماق روحك، فتستخرجها تلك الكلمة، وتعيدك إلى رائحة اختلطت بالزمان والمكان.

كلمات أخرى، سيكون لها مفعول مشابه، لكن باتجاه آخر، فتعيدك إلى زمان لا تود الذهاب إليه، ولو بمجرد الذكرى، ستأخذك إلى صورة (ذهنية) لا تملك إلا أن تشيح ببصرك عنها، ولأنها في ذهنك، وليست أمام بصرك، فإن إشاحة البصر لا تجدي نفعًا.

قد يكون الرابط بين الكلمة وتداعياتها صائبًا، وقد لا يكون. لكن النتيجة تبقى واحدة، إن (كلمة ما) تحكم السياق كله، أو بالأحرى تحكم تفاعلنا مع السياق.

***

لا مشكلة كبيرة في ذلك، عندما يكون السياق مجرد حديث عادي بين صديقين، أو مجرد كلام نسمعه دون اهتمام.

لكن إذا كانت مناسبة السياق مختلفة، مهمة جدًّا، وقد (أُنزلت) من أجل أن تحدد طريقنا، فإن (تداعيات) كهذه، ربما تشوش على فهمنا.

أتحدث عن القرآن طبعًا.

***

بعض ألفاظ القرآن، عوملت بطريقة مماثلة، تأطر اللفظ بشكل جعلنا نفهم كل السياق باتجاه مختلف.

لفظة (كدح) مثلًا، ارتبطت بصورة العمل الشاق المضني الذي بالكاد يكفي قوت اليوم.

بطريقة ما، صرنا لا نذكر كلمة كدح، أو تُذكر أمامنا، إلا وتداعت أمامنا صور المعذبين في الأرض، أولئك التعساء الذين يكدُّون ويتعبون من أجل لقمة أطفالهم، أولئك البؤساء في الأرض الذين بالكاد يتدبرون أمورهم، وربما لا يتدبرون، فيبيت أطفالهم أحيانًا بلا عشاء، أو بقليل منه.

ارتبط (الكدح) في أذهاننا بذلك العمل الشاق، الذي يشبه عمل السخرة، حيث يعمل العامل لا بأجرته، بل بقوت يومه، وربما كسوته، ولا شيء غير ذلك.

لذلك عندما يأتي القرآن الكريم ليقول لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]، فإن أذهاننا تذهب فورًا إلى صورة الكدح التقليدية، وذلك العمل الشاق المضني، الذي بالكاد يكفي سد الجوع.

***

ويكون هذا صحيحًا، لو أن كلمة (الكدح) في لسان العرب ترتبط بما تداعت له أذهاننا.

لكن ليس هناك من هذا.

ليس هناك من (بروليتارية) في لفظة كدح.

واللفظ في جذره بريء تمامًا من تلك الصورة، إنه لا ينفيها، ولكنه في الوقت نفسه لا يؤكدها.

بل يقدم صورة أخرى، لا علاقة لها بالصورة البائسة الرائجة. صورة ربما لا تنفي التعب والكد، ولكنها لا ترتبط بالشقاء والبؤس.

***

علينا أن نمسك بممحاة ما، ممحاة من نوع خاص، ونمسح على ذهننا ما علقَ وتراكم بغير حق، بلفظة كدح. مرة بعد أخرى، نحرك الممحاة، لنزيل ذلك، ومرة بعد أخرى، يتدفق الضوء من اللفظ الأصلي، ليقدم لنا بدلًا عن صورة الشقاء والبؤس صورة أخرى. على ذهننا أن يتشكل على أساسها.

***

الكدح في لغة العرب، هو العمل والسعي والكسب. وقال البعض إنه عمل الإنسان لنفسه وعياله. انتهى. هذا كل شيء بخصوص معنى (كدح) في جذرها الأصلي. لا شيء عن ذلك البؤس والشقاء والعمل بقوت اليوم الذي كان يتداعى إلى أذهاننا كلما مررنا بالكلمة.

إنه العمل والسعي الدؤوب إذن.

ونحن جميعًا نعمل، ونسعى، ونكسب، ربما تختلف درجة انهماك كل منا في العمل والسعي والكسب، وفي نتائج هذا الكسب، ونجاحه أو إخفاقه، لكن كلًّا منا، بطريقة ما، بمعنى أو بآخر (يكدح).

حتى لو كان يركب سيارة فارهة، ويملك رصيدًا فلكيًّا في البنك، ولا تفوته فرصة لقضاء إجازة في مصيف أو مشتى إلا واغتنمها.

الكل كادحون، بطريقة أو بأخرى، سواء ارتدوا ثيابًا من أرقى دور الأزياء.

أو ارتدوا ما يقيهم البرد والعري فحسب.

***

لكن لا!

الآية الكريمة لا تقول ذلك بالضبط.

إنها لا تقول: يا أيها الإنسان إنك كادح كدحًا فملاقيه. بل هناك ما هو مهم جدًّا، ربما لم ننتبه إليه في غمرة التداعيات البائسة التي كانت تسيطر على أفكارنا.

فالكدح هنا مرتبط ببوصلة تحدد اتجاهه. ولا تجعل كل ما هو كدح يتساوى.

البوصلة؟

إنه أن يتجه هذا الكدح إليه عزَّ وجلَّ حصرًا، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

إنه أن يكون هذا الكدح، هذا العمل والسعي والكسب، متجهًا نحو جهة محددة، تعالى الله عن أن يكون في جهة أو مكان، لكن أن يكون

قصد هذا السعي، ومطلبه، نحو ما أراد الله -عز وجل- نحو شرعه. نحو ما خلقنا من أجله.

***

كل البشر يكدحون.

ولكن ليس كلهم يكدحون إلى الله.

هناك من يعمل من أجل مجرد المزيد من المال، المزيد من التطاول، المزيد من مراكمة السلع والأشياء.

فهل سنقول إن هذا لا يكدح؟

هل سننفي عنه العمل بالمرة لأن عمله وكدحه لا يتجهان إلى الله -عز وجل-؟ هل سنأخذ منه عمله لمجرد ذلك؟

لا، لن ننفي ذلك، ولن نأخذه منه.

سننفي عنه ارتباطه بحقيقته الإنسانية.

***

كل المخلوقات تسعى، كلها تعمل وتكدح بطريقة أو بأخرى. الطيور تسعى وتبني أعشاشها، وتسعى من أجل صغارها. النحل على صغر حجمه، فهو مثال نموذجي على الدأب في السعي. النحل كذلك، صار مثالًا على حسن التنظيم في السعي.

حتى القطط والكلاب الضالة، وحتى الوحوش والضواري، على الرغم من افتقادها لتنظيم النمل والنحل، فإنها تسعى، تكدح من أجل قوتها وقوت صغارها.

وحده الإنسان، من بين كل هذه المخلوقات، من النمل إلى الفيل، يمتلك هذه الخاصية.

خاصية أن يكون كدحه إلى الله.

***

كما لو أن الكدح الإنساني عندما لا يوجه إلى الله -عز وجل-، يسلب من الإنسان ارتباطه بإنسانيته، ويجعله ضائعًا عنها. كما لو أن اتجاه الكدح إليه عز وجل، شرط من شروط إنسانيتنا.

كما لو أن أيًّا منا لن يكون إنسانًا كما أراد الله له أن يكون ما لم يكدح إلى الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾.

***

ومن معاني كلمة (كدح)، في لسان العرب معنى آخر. ربما سنعتقد أولًا أن لا علاقة له بمعنى العمل والسعي والكسب. لكن لو تأملنا فيه مرة أخرى لوجدناه ليس مرتبطًا بالسعي فحسب. بل بالضبط بالمحصلة النهائية لأفعالنا الفردية.

ما هو المعنى؟

إنه «خدش». كدح في لسان العرب تعني، بالإضافة إلى كل ما سبق، «خدش».

أليس هذا ما نفعله حقًّا؟ أليس كل ما نفعله في النهاية، وفي أحسن الأحوال، مجرد خدش على الجدار العالي للزمن؟

أليس فعلنا الفردي مجرد خدش، يحتاج إلى خدوش أخرى، إلى أفعال أخرى، ليحدث شرخًا، أو شقًّا، أو بناءً، أو تشييدًا؟

الخدش، هو تلك البصمة التي نتركها في هذا العالم، بصمة تختصر كل عملنا، كل سعينا، كل كدحنا.

كل ما نفعله في النهاية يمكن أن يُختزل، ليكون مجرد بصمة. وهذا في أحسن الأحوال.

وأحيانًا لن يكون هناك حتى بصمة.

سيكون كل شيء هباءً منثورًا. بلا أي أثر.

***

كل كدحنا في هذه الأرض هو من أجل أن نترك خدشًا، أن نترك بصمة.

أحيانًا يكون هذا (الخدش) مشاركة في حرف واحد، من كلمة مما سيصير لاحقًا جملة، قد تنير الدرب، وتشق الطريق.

وأحيانًا يكون هذا الخدش تمهيدًا لمسمار، مسمار يدق الجدار، ويفتح الأبواب.

أو يكون خدشًا من أجل حفر الأساس.

كل ما نفعله هو مجرد خدش.

فما دام ذلك لننظر ماذا نخدش.

وفي أي اتجاه.

***

الملَّاح التائه

وقف على شاطئ البحر ممتطيًا صهوة جواده، وتقدم فيه بتحدٍّ خطوة، خطوة إثر أخرى، وقد وصل الماء إلى أذني الجواد الأصيل، لكنه تقدم وشهر سيفه، وقال ما صار مشهورًا: « ***يا رب لولا هذا البحر لمضيت مجاهدًا في سبيلك، اللهم اشهد أني بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت أقاتل من كفر بك حتى لا يُعبد أحد دونك*** ».

لن أسألكم ما اسم القائل، فهذا ليس برنامجًا للمسابقات، وإن كان كذلك فإنكم على الأكثر ستعرفون اسمه، إنه عقبة بن نافع طبعًا.

لا أريد التحدث عنه الآن، لكني أود أن أقف هناك، حيث وقف هو وجواده الأصيل، على شاطئ المحيط.

وهل سأسألكم عن اسم المحيط؟ إنه الأطلسي طبعًا. لكن مرة أخرى هذا ليس برنامجًا للمسابقات، وإذا كنت مهتمًّا باسم المحيط فإن (الأطلسي) ليس ما أريد التحدث عنه.

هل الاسم مهم لهذه الدرجة؟

نعم. إنه مهم هنا.

ذلك أن أجدادنا من قدامى الجغرافيين، كانوا قد أطلقوا على هذا المحيط اسمًا آخر، هو ما أريد الوقوف عنده.

لقد أطلقوا عليه (**بحر الظلمات**).

***

ربما لأنه كان يمثل نهاية العالم، بالنسبة إليهم، وربما لأن أشعة الشمس كانت لا تنعكس عليه من حيث يقفون، فكان البحر يبدو مظلمًا جدًّا، وربما لأنه كان يبدو شاسعًا بلا ضفة أخرى.

ربما لكل هذه الأسباب، أو لسبب آخر تمامًا، فإن واحدًا من أجدادنا، لا نعرف اسمه للأسف، أطلق على ذلك البحر ذلك الاسم المليء بالدلالات: **بحر الظلمات**.

على شاطئ بحر الظلمات، أقف وإياكم، متأملًا فيه، وفينا.

***

الوقوف على شاطئ بحر الظلمات، لا يتطلب تذكرة سفر، ولا تأشيرة دخول، وهو بالتأكيد لا يتطلب مبلغًا هائلًا من المال. الوقوف على شاطئ بحر الظلمات، ليس سياحة في ماربيا أو المالديف، أو منتجع مترف آخر.

الوقوف هناك يمثل في حقيقته **زيارة إلى النفس**.

***

(**بحر الظلمات**) الحقيقي الذي أتحدث عنه وأريد أن أقف على شاطئه لا يقع ضمن نطاق جغرافي حقًّا، ولا يتحدد بخطوط طول وعرض. إنه ليس الأطلسي ولا الأوقيانوسي ولا بحر الأندلس أو الغرب ولا أي تسمية أخرى مرت عليه.

إنما هو بحر آخر، لا توجد المنتجعات على ضفافه، ولا تستغله الحيتان البشرية للتربح منه عبر إنشاء المصايف أو حتى إلقاء النفايات.

بحر الظلمات –الحقيقي– يقع في داخلنا، نحمله معنا أينما ذهبنا. كل ما في الأمر أننا نجهل ذلك، أو نتجاهل، وعندما يُطلب منا أن نعدد

أسماء البحار والمحيطات، فإننا نذكر كل ألوانها، بل ونذكر حتى الميت منها! ولكن ننسى ذلك البحر الذي يحيا داخلنا.

***

نولد به. نعيش معه. ونموت ونحن ما نزال نحمله.

وقد نذهب للسياحة والاصطياف هنا وهناك. قد نركب يختًا فاخرًا على ذلك البحر، أو (عبَّارة) يائسة وبائسة على بحر آخر، أو مركب هجرة محفوف بمخاطر أن تنتهي طعامًا للسمك. قد نتزلج بلا وجل على هذا البحر، وقد نقف عند شاطئ بحر آخر، ونحن خائفون من أمواجه، ومن هيجانه وربما من حيتانه.

لكن ذلك البحر الآخر، الذي نحمله معنا، أينما ذهبنا. لا نفكر حتى في التفكير فيه.

***

بحر الظلمات الذي نحمله معنا، يحيط بنا من كل الجهات يجعل كلًّا منا يعيش داخل جزيرة معزولة.

على الرغم من كل ما حولنا من مظاهر وعلاقات، وعلى الرغم من كل الأسماء والأرقام التي تملأ هواتفنا الجوَّالة، ورغم كل الصور الجماعية في مغلفات صورنا. رغم كل ذلك، وربما أيضًا بسببه، نحن لسنا سوى روبنسون كروزو في جزيرة معزولة –بلا رفيق– بلا حتى (جمعة). بلا قارب إنقاذ. بلا سفينة مارة ولو على بعد محيط.

كل منا (حي بن يقظان) بطريقة ما، بلا إرث، رغم كل مواريثنا، بلا معرفة سابقة، رغم كل شهاداتنا ومعلوماتنا. كل منا ابن تلك الظبية التي بلا اسم. وحيدًا رغم كل الزحام من حول كل من حولنا.

لكن التحدي هو أن نهجر تلك الجزيرة، أن يكون روبنسون كروزو -أو حي بن يقظان- مرحلة عابرة في حياتنا.

التحدي هو أن نقف على شاطئ بحر الظلمات لنتحداه، كما فعل عقبة بن نافع، بل أكثر. أن نخوض هذا البحر.

التحدي هو أن تقف على شاطئه، لا في انتظار سفينة عابرة كي تنقذك، ولكن لكي تمخر عبابَه. لكي تخرج منه.

التحدي هو أن تخوض بحر الظلمات، رغم ظلماته، لكي تصل إلى المرفأ الآمن.

إلى بر النور.

***

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: 6].

الولادة الأولى -أعني الولادة البيولوجية- تخلصنا من ظلمة الرحم ربما.

لكن ليس كل الظلمات يُقضى عليها بتلك الولادة التي لا نذكرها، ولا نعيها، التي تتحمل أمهاتنا عناء مخاضها.

هناك ظلمات أخرى، بعضها يكون مبهرجًا، بضوء مزيف، وبعضها تجد من يصر أنها هي النور بعينه، وبعضها نجد أنفسنا فيه، وبعضها ندخله بإرادتنا.

أي ظلمات تلك والعصر الحديث قد أضاء بالكهرباء أقصى بقاع الأرض؟

لا، إنها ظلمات أخرى، لن تزيلها الطاقة الكهربائية، ولا حتى الطاقة النووية.

إذن؟

***

في الحياة هناك، على الرغم من كل ما يقال، أشياء **لا تقبل أنصاف الحلول**. أشياء حادة وحاسمة. لا يمكن أن تقبل المفاوضة والمساومة. أشياء إما أن تكون وإما لا تكون.

أعرف أن هناك أشياء أخرى قد تقبل ذلك، ولا يمكن إنكارها، ولكن لا يمكن إنكار أن ذلك لا يمكن أن يُعمم. وأن هناك في الحياة ما هو غير قابل لذلك.

هناك ثنائيات غير قابلة للتمازج، ثنائيات لا تمثل غير التضاد والتناقض، ولا يمكن إيجاد مساحة مشتركة بينها.

مثل ماذا؟

مثل **الظلمات، والنور**.

لا يمكن أن يكون هناك منطقة وسطى بينهما. إنه إما الظلمات، وإما النور، ليس من (بين – بين) في ذلك.

بعبارة أخرى: عندما لا يكون هناك (النور)، لا بد أن تكون الظلمة، ظلمة من الظلمات.

عندما لا يكون بر النور، فإنه بحر الظلمات يحيط بك، وبنا من كل الجهات.

***

ولأن الأمور حاسمة، فإن الظلمات متعددة، ولكن النور دومًا واحد. وهو نوره هو، عز وجل، خالق السماوات والأرض، وجاعل الظلمات والنور.

إنه نوره هو، نور السماوات والأرض. النور الذي يقف على الجهة الأخرى من كل الظلمات، إنه الضفة الواحدة المقابلة لبحر الظلمات. بر النور. مقابل بحر الظلمات.

***

حياتنا -تكون غالبًا- **رحلة من التراب إلى التراب. أو هكذا يصفها البعض.**

لكنها يمكن أيضًا أن تكون ما هو أكثر من ذلك. يمكن أن تكون **رحلة من التراب إلى النور. أو بالأحرى من الظلمات إلى النور.**

وأقول يمكن لأن ذلك لا يحدث للجميع، **بعض الناس يفضلون البقاء في الظلمات، ربما لأنهم يتعايشون معها، أو ربما لأنهم يصبحون مع الوقت مثل الخفافيش التي تموت إذا جاء النهار، أو ربما لأنهم لا يجرؤون على تغيير ما اعتادوه، وربما لأنهم اقتنعوا، أو أُقنِعوا، أن تلك الظلمة هي قلب الضوء ومنتهى سطوعه.**

تتعدد الأسباب، وتتعدد الظلمات.

لكن تبقى تلك الرحلة هي الإنجاز الأهم، وربما الوحيد الذي سيستحق الذكر في كل حياتك.

يبقى ذلك الخروج من الظلمات إلى النور هو مخاضك الحقيقي. ولادتك التي تفعلها بمنتهى إرادتك، ووعيك.

***

لكنها رحلة صعبة، طبعًا، ليست مجرد (خروج) من الظلمات بفتح باب، أو عبر مخرج سريع. إنها إبحار في عمق بحر الظلمات، مثل إبحار في محيط متناهي الأبعاد. الرياح قد تكون عاتية، والأمواج قد تكون عالية، وأسماك القرش ستكون حتمًا مفترسة.

وفوق كل ذاك، إنه **بحر الظلمات**.

على الرغم من كل ذلك، فإنه **هو** لن يتركك وحدك.

وسيقود سفينتك، على الرغم من كل شيء عندما ترغب حقًّا في الوصول إلى بر الأمان.

***

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257].

في تلك الرحلة الصعبة، لن نكون مثل ملَّاح تائه، في بحر بلا دليل. سيكون ولي من يريد الخروج فعلًا من ذلك البحر وليس أن يقضي مجرد وقت ممتع في البحر.

سيمنحهم البوصلة والشراع فيعرفون الاتجاه، وتصير الرياح العاتية التي يمكن أن تغرقهم طاقة إضافية تحرك السفينة إلى ذلك البر الآمن. ستحدد لك البوصلة البر، ستكشف لك أن كل المرافئ الأخرى مزيفة. ليست حقيقة، إنها أكثر من سراب بقيعة.

تلك البوصلة ستعطيك النور أيضًا، ستتلمس طريقك عبره، في بحر الظلمات ذاك، عبر ذلك النور الذي سيمنحك إياه.

الاتجاه إذن، والنور، أيضًا من تلك البوصلة.

عن أي بوصلة أتحدث؟

***

تعرفون طبعًا، إنها ذلك الكتاب. الذي يهدي وينير. ربما وضعه البعض على الرف أو في الزاوية. لكن ذلك كان جزءًا من أسباب تيه ذلك الملاح الذي تقمصناه. هل يمكن أن **نتوقع من الملاح –ومن سفينته– غير التيه إذا لم يستعمل البوصلة ولم يحاول أن يتبع الخارطة؟**

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: 9].

إنها تلك الآيات، آيات الكتاب، هي البوصلة وهي الضوء، هي التي تبين الطريق وتنيره، طريق الإبحار من بحر الظلمات وصولًا إلى بر النور.

***

ولا يمكن إلا أن ننتبه أن كل آيات الخروج من الظلمات إلى النور لم تتحدث بصفة فردية قط، كلها كانت بصيغة جماعية. كلها تحدثت عن قومٍ يخرجون من الظلمات، عن جيل كامل يخرج من الظلمات، عن أمة كاملة تحقق نهوضها وذاتها عبر الخروج من بحر الظلمات.

ولكن ذلك يبدو منطقيًّا جدًّا، ما من عاقل سيحاول اجتياز البحر بقارب صغير وحده. من أجل الوصول لا بد من سفينة بطاقم كامل، لا بد من المجتمع بأسره.

الاستثناء الوحيد الممكن «فرديًّا» في هذه الحالة، ليس من مغامرين يحبون الإثارة ويريدون دخول عالم الأرقام القياسية، **بل من باحث عن النور ومؤمن بأن بر النور هناك على الضفة الأخرى. لكن قاربه لن يكون فرديًّا هنا، بل سيكون أقرب إلى قارب استطلاع من أجل سفينة تأتي لاحقًا بعده.**

***

الممكن إلى أقصى حدٍّ ممكن!

إصلاح العالم حلم قديم، قديم منذ أن اكتشف البشر لأول مرَّة وجود الشرِّ والظلم في هذا العالم.

ولا أشك لحظة أن إصلاح العالم وقتها، كحلم، كان يبدو أسهل منالًا وتحقيقًا منه الآن.

لم يكن الإنسان قد أُحبط بعد، لم يكن حلمه قد اغتيل، لم يكن قد تعود على الظلم والشر.

مع تراكم الإحباطات، يبدأ الإنسان بالتعايش مع العالم كما هو، أي بالظلم الذي فيه، وآليات التعايش ستتضمن أول ما تتضمن تغيير معنى الظلم، وتغيير تعريف الشرِّ، بحيث إنه لا يعود ينطبق على العالم.

أي إن الإنسان بدلًا من أن يغير العالم، يغير تعريف الشر والظلم، وبدلًا من أن يصلح العالم، يفسد رؤيته، لتتوافق وتنسجم مع العالم لكي يتعايش معه، **ولو بأخذ حبة «مسكن» يرشو بها ضميره ويخدره من كل ما يجب أن يوقظ فيه آليات التغيير.**

وكان ذلك التعايش يعتمد غالبًا على منح الشرعية للأمر الواقع، وعلى شرعنة منطق القوة، قد يكون ذلك أحيانًا مجرد رضوخ له باعتباره العرف السائد المتوارث، وقد يجمَّل أحيانًا بمصطلحات أيديولوجية وقانونية، وكلها في الغالب نسخ محسَّنة من شريعة الغاب، من شريعة

ذلك العالم الذي يستحق الإصلاح والتغيير، لكننا نغير مفاهيمنا كي تنسجم معه.

***

وبين شريعة غاب وأخرى، كان الأنبياء يُبعثون ليُطيحوا بذلك التعود الذي يبلد حس الإنسان تجاه الظلم، ويجعله يتعايش معه.

كان من ضمن مهمة الأنبياء ومن ضمن مهمة من سار على أثرهم وخطواتهم، أن يبعثوا الحياة إلى حلم إصلاح العالم، أن يزيحوا عنه وهم الاستحالة، وخيوط البلادة، أن ينقلوه من نطاق الحلم، إلى أفق التطبيق.

من الرؤوس إلى الواقع.

***

المكان: مدين. وربما أي مدينة أخرى. ربما اسم مدين هنا يختصر كل المدن. ربما هو رمز للمدينة، أو للمدنية، قبلها وبعدها، ربما تشبه مدينتك التي تعيش فيها، أو المدينة التي هاجرت إليها، أو التي تطمح إلى أن تهاجر إليها.

الزمان: ليس مهمًّا جدًّا، فهو يتكرر دومًا، لكنه تصادف هنا أنه كان قبل الميلاد، ربما بضعة قرون قبل الميلاد.

المناسبة: إصلاح المكان، والزمان.

***

للظلم أشكال متعددة، قد تبدو غير مترابطة، لكن منبعها واحد.

فالشرك مثلًا ليس مجرد إشراك لمعبود آخر في العبادة، مع المعبود الحق الواحد، عز وجل.

إنه ليس مجرد وجود معبود آخر، الشرك في جوهره وجود خلل في الرؤية، خلل في ميزان القيم –خلل في النظرة إلى العالم– وينتج عن هذا الخلل الأساسي مظاهر متعددة: أوضحها هو أن يتوجه مظهر عبادة لغير الله.

لكن منها أيضًا، وبشكل مباشر، أن يؤدي ذلك الخلل في **الميزان الأشمل** إلى خلل في **الميزان المباشر: ميزان الكيل – البيع والشراء.** ارتباط الأمرين ليس نادرًا على الإطلاق، فهما يرتبطان معًا ارتباط السبب والنتيجة.

فإذا كان الشرك «غشًّا» في العبادة مع الله -عز وجل-، فإن الغش في الميزان مع الناس كان أولى، وأيسر.

بعض المجتمعات لا تتعود على ذلك فحسب، بل تشرِّعه، تجعله ركيزة من ركائز استمرارها.

كانت مدين مسرحًا لذلك كله، لكنها بالتأكيد لم تكن المدينة الوحيدة التي تشهد ذلك؛ كان ذلك موجودًا في كل مدنيات الشرك وحضاراتها.

كان ذلك مرتبطًا ارتباط السبب بالنتيجة: مجرد تحصيل حاصل.

***

وجاء شعيب حاملًا معه الإنذار بأن ذلك الظلم المزدوج، وإن بدا أنه ركيزة المجتمع، يحمل معه بذرة انهيار وفناء ذلك المجتمع.

وكان ذلك الظلم المزدوج (الشرك – والغش في الميزان) سائدًا بقوة العرف الاجتماعي، وكانت محاربة ذلك الظلم أو الدعوة إلى التخلص منه تعدُّ مساسًا بأساسات ذلك المجتمع وبأمنه.

لذلك سنرى أهل مدين وهم يستغربون دعوة شعيب ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87].

فالحلم والرشاد، حسب منظورهم، يجب ألا يمسا ركائز المجتمع، حتى لو كانت ركائز ظالمة، وإنما يجب أن يوظفا من أجل تخفيف مظاهر الظلم، وليس تجفيف منابعه.

أي إن الحلم والرشاد، بحسب منظور أهل مدين، **يجب أن يسهِّلا التعايش مع الظلم، وليس أن يغيراه بأي شكل من الأشكال.**

لكن الأمر مع شعيب أعمق وأكبر من ذلك بكثير.

فهو لم ييأس من ذلك الحلم: **حلم إصلاح العالم.**

بالضبط: لم ييأس من إمكانية جعله حقيقة.

***

الإصلاح إذن.

إنه يريد الإصلاح.

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ [هود: 88].

لكن الإصلاح هنا ليس عملية تجميلية على وجه مجتمع قبيح. إنه ليس عملية سطحية «شد للوجه» لتزيل آثار التجاعيد، إنه ليس عملية لوضع بعض المساحيق من أجل إخفاء بعض البثور، أو حقنة تضع مادة تجعل الوجه يبدو أكثر شبابًا، إلى أن يحين موعد الحقنة التالية.

أي إن الإصلاح، بعبارة أخرى، ليس محاولة لإخفاء القبح أو مظاهره، ليس توزيعًا للصدقات على الفقراء مع الإبقاء على جذور الفقر موجودة. ليس حرصًا على جعل واجهة المدينة جميلة ومبهجة للزائرين، بشوارع

أمامية نظيفة ونموذجية بينما الشوارع الخلفية تعج قذارةً وفقرًا وكل ما سيؤدي إلى الجريمة.

لو أن شعيب أراد من الإصلاح أن يكون محض تجميل سطحي، لما قاومه عليه أهل مدين، ولما رفضوه، فالتجميل السطحي يخفف من حدة التناقضات، ويزيل مظاهر القبح دون أن يمس الأسباب، وهذا أمر لن يزعج الملأ في مدين، أو في مكة، ولن يزعج قارون وهامان وفرعون، في كل زمان ومكان. على العكس، «التجميل السطحي» قد يوظَّف – بذكاء– من قِبل الملأ من أجل أن يؤخر الانهيار، حتى لو كانت نية من يقوم بذلك النوع من التجميل نية طيبة وصادقة.

لكن شعيب، وكل الأنبياء وكل من سار ويسير على خطاهم في طريق الإصلاح، لا يريدون التجميل السطحي.

إنهم لا يريدون «الترميم».

إنما يريدون الإصلاح.

***

والفرق بين «الترميم» و «الإصلاح» كبير.

فالترميم عندما يقام على البيت الآيل للسقوط، المشرف على الانهيار، قد يجعله يبدو أفضل حالًا: إضافة الرخام على الواجهة، وإعادة الطلاء، وتبديل البلاط، كله سيجعل البيت «**يبدو**» كما لو أنه جديد، لكن أساساته ستظل تحمل بذرة السقوط.

فالترميم لم يصلح الأساس، لم يصلح القواعد، وإنما فقط قام بعملية تجميل، مثل عملية شد وجه لمريض مصاب بالسرطان.

أما الإصلاح فهو أعمق من ذلك.

على الأقل بالنسبة إلى شعيب والأنبياء مثله ومن سار على خطواتهم:

الإصلاح كان موجهًا لقواعد المشكلة، لأساسها، ليس لنتائجها ومظاهرها.

ولذلك لم يتردد شعيب في أن يحدد هدف إصلاحه: **ميزان الرؤية والقيم المتمثل في الشرك وفي الغش في الموازين. في بخس الناس أشياءَهم. لم يتجه إلى المظاهر، بل إلى الأساس.**

لأن الإصلاح هنا وإنقاذ البيت الآيل للسقوط وإنقاذ من فيه من السكان، يتطلب إصلاح القواعد من أساسها.

***

سيبدو ذلك صعبًا جدًّا، إذا لم يكن مستحيلًا، فالعالم يبدو من السوء بحيث إن إصلاحه قد يتطلب قلبه رأسًا على عقب، أو شيء كهذا.

وهذا الأمر سيكون خارج نطاق قدرة الفرد، إنه على الأقل خارج قدرتي الشخصية، وخارج قدرة الأشخاص الذين أعرفهم والذين تعرفونهم، أصدقاؤكم وأصدقائي، معارفكم ومعارفي.

لكن هل هذا سيجعل من هؤلاء الأشخاص خالصين من مسؤولية الإصلاح، لأنه أكبر من إمكاناتهم؟

أبدًا.

فشعيب نفسه، وهو النبي الذي صرَّح بالإصلاح، صرح أيضًا أنه يريد ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: 88].

إنه ليس الإصلاح بالمطلق إذن. لأن ذلك ليس في مقدور فرد معين على الإطلاق.

بل هو ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

الإصلاح في كل خطوة تخطوها، الإصلاح بقدر الممكن، الإصلاح باستنفار كل طاقتك.

«الإصلاح»، الموجه إلى القواعد والأساسات، الذي هدفه إصلاح العالم، لا إصلاح واجهته، لا تسهيل التعايش مع عالم قبيح.

إنه الإصلاح الممكن، إلى أقصى حدٍّ ممكن.

***

ولأن المناعة الإنسانية ضعيفة أمام فيروس الإحباط، ولأن إصلاح العالم مهمة صعبة جدًّا، فإن اليأس قد يتسرب بين هذا وذاك. ولذلك، فإن شعيب، يقرر ذلك، يقرر أن **مهمته هي إصلاح العمل**، أما نجاحه في ذلك، فأمر ليس بيده، المهم أن يحاول الإصلاح، بأقصى حدٍّ ممكن.

أما **التوفيق** في هذا الإصلاح فيرجع إلى الله -عز وجل-، إلى **سننه وقوانينه وفرصه التاريخية التي يمنحها لمشاريع الإصلاح.**

لا أحد يعرف بالضبط متى يأتي ذلك.

لكن المهم أن يكون الإصلاح جاهزًا، ومستمرًّا، عندما يحدث ذلك.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: 88] – قال شعيب، لأنه يعرف أن الإصلاح ليس نزهةً. وليسَ أمرًا يسيرًا. ولأن أي مشروع للإصلاح سيحتاج – بالإضافة إلى التخطيط والوعي– إلى فرصة تاريخية، هي ضمن ذلك التوفيق الإلهي.

وسيردف شعيب، كما لو أنه يهمس إلينا، عبر تعاقب الأماكن والأزمنة: ﴿عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَإِلَيهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

إنه يتوكل على الله من أجل إصلاح العالم.

التوكل هنا، وكما يجب أن يكون، توكلٌ إيجابي، توكل ليس من أجل تحمل ما لا يجب أن يحتمل. ليس من أجل تسهيل التعايش والصبر على ما يجب أن يغير.

إنه توكل على الله -عز وجل- من أجل إصلاح العالم.

إصلاح العالم، إلى أقصى حدٍّ ممكن.

***

واسأل نفسك هذا السؤال.

هل جربت -ولو مجرد تجربة- أن تصلح عالمك؟

هل فكرت بذلك؟ ولو مجرد تفكير؟

الموقع من الأعراب

لا أزال أذكر ذلك.

عندما كنا قبيلة تائهة في الصحراء، الرمل كلُّ عالِمها، الخيمة كل إنجازها، والترحال، دون أثر، كل ما تفعله، كل ما تتقنه.

لا أزال أذكر ذلك. كنا نرحل دومًا، وكانت الرياح سرعان ما تمحو آثار أقدامنا عن الرمال، فتختفي، كما لو أننا لم نكن، كما لو أننا لم نمر على هذا العالم أصلًا.

لا أزال أذكر العواصف الرملية، تكاد تقضي ليس على آثارنا فحسب، بل علينا، تكاد تمحينا من الوجود كما تمحي آثارنا. لا أزال أذكر كيف أن ذلك لم يدفعنا لمواجهة العاصفة، لتغيير موقعنا، كل الذي فعلناه أننا اختبأنا في خيمنا وتمسكنا بها، وانتظرنا أن تنتهي العاصفة.

لا أزال أذكر أن هناك من قال، من بيننا، إن ذلك لم يعد يُحتَمل، وإنه لا مفر من الفرار. من ترك ذلك كله واللجوء إلى مكان آخر، والاستقرار فيه.

لا أزال أذكر كيف حاربناهم، كيف قلنا لهم إن ذلك لا يجوز، وإن ذلك لن يصلح، وإن ذلك مجازفة كبيرة.

لا أزال أذكر كيف أقنعناهم، أنه ليس من الإمكان أفضل مما كان، وأن البقاء في ذلك الترحال المستمر أضمن وأكثر جدوى من السلوك في طريق مجهول.

لا أزال أذكر كيف ذهبوا فرادى، مصحوبين بلعناتنا، وكيف عاد من عاد منهم، خائفًا مذعورًا من وحشة الطريق.

***

أستغرب كيف أذكر كل ذلك، رغم أني لم أكن موجودًا أصلًا فيه. فقد وُلدت عندما انتقلت قبيلتنا إلى أبنية من الأسمنت والحجر، وصار لها عنوان ثابت، وتعلو فوق تلك الأبنية صحون التقاط القنوات الفضائية، وفي كل من بيوتنا توجد أحدث الأجهزة الكهربائية ثمن كل منها يعادل أضعاف عن الخيمة التي كنا نسكنها.

رغم ذلك، ورغم أني لم أرَ الخيمة ولم أعش فيها، فإن ذلك كان مسكونًا في ذاكرتي كوشم لا يغادرها.

لا أدري كيف حدث ذلك، هل هو حلم رأيته، هل هو ما يسمونه الذاكرة الجماعية، هل هي ذاكرة قبيلتي، تتناقل في وعيي وفي لا وعيي وأراها شاخصة، كما لو أني مررت بذلك.

بالصحراء، بذلك الترحال، بالرمل وبعواصفه. لا أعرف لماذا ولا كيف، لكني أعرف أن هذا ما أعرفه.

***

لعل الأمر يرجع إلى أن الديكور تغير قليلًا، لكن الجوهر بقي واحدًا.

أعني أننا ربما نكون قد تركنا الخيم، وتركنا الترحال وأقمنا في بيوت من الحجر والرخام. لكن ربما نكون لا نزال بدوًا، في أعماقنا.

ربما لم تكن الخيم والترحال سوى مظهر عابر من مظاهر البداوة، مظهر تخلصنا منه، لكننا لم نتخلص من البداوة في جوهرها.

ما هي إذن البداوة في جوهرها؟ هل هي مجرد العيش في الخيم والترحال؟ لا، إنها، في العمق الأعمق منها، العيش على الهامش، إنها العيش دونما هدف، دونما محاولة الوصول إلى الهدف، إنها العيش كعابر سبيل دون محاولة لوضع حجر أساس لمجتمع جديد، لحضارة جديدة.

إنها العيش على الهامش، ولو في قصر من الرخام والحجر.

إنها أن تعيش على الهامش، بينما تمتلك كل ما يبدو به أنك في المركز.

***

بمقاييس القناع الزائف أنجزنا فعلًا أشياء مهمة، وانتقلنا من مرحلة البداوة إلى مرحلة المدنية.

لكنها مقاييس زائفة، تعطي إشارات خاطئة، مثل حمل كاذب يخدر امرأة ما، تنتظر الحمل الحقيقي، الإنجاب، بصبر فارغ. أما مقاييس الجوهر...

فنحن لا نزال بدوًا، ليس بالمعنى الذي يمكن إيجابيًّا للبداوة، مثل الحرية والشجاعة، بل بمعنى العيش على الهامش.

***

لكن لا، ربما لم نبق بالضبط في ذلك المكان.

ربما خرجنا منه إلى طور آخر متعدد الآفاق، طور البناء والإنماء.

ولكننا، لسبب أو لآخر، رجعنا إلى ذلك السجن الذي قضبانه، وإن كانت غير مرئية، إلا أنها أقسى وأغلظ من قضبان أي زنزانة حديدية.

إنه سجن البداوة، الذي قد يسكنه أشخاص لم يكن أجدادهم بدوًا من الأساس.

لكنه حالة وضعية، لا علاقة لها بتاريخ القبيلة ولا سلسلة جيناتها.

***

وفي إعجاز مثير، ترتبط البداوة بالسجن، في آية قرآنية مررنا عليها غالبًا مرور الكرام، بل مرور اللئام في الحقيقة. فاللئيم هو من يتعامل مع القرآن بسطحية ولا يتوقف عند كل آية كما يجب.

البداوة ارتبطت بالسجن في القرآن الكريم؟ كيف؟ وأين؟ وكل ما تجشم في أذهاننا من معانٍ، جعل من البداوة فضاء انطلاق وحرية.

لا، هذا فهمنا فحسب، أما القرآن الكريم فهو يضع البداوة والسجن في سياقين يتقاطعان عند نقطة واحدة، نقطة تجعلنا نعيد النظر في فهمنا للبداوة.

وبالتالي في فهمنا لأشياء كثيرة، من بينها وضعنا الحالي، وموقعنا من الأعراب.

عفوًا، أقصد موقعنا من الإعراب!

***

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ [يوسف: 100].

إنها النقطة التي على العرش، نقطة الذروة، حيث تتلاقى السياقات، وتفسر الرؤيا، بل تتحقق، تصير حقًّا.

***

﴿أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ والمتكلم هنا هو سيدنا يوسف، ترتبط بـ ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ والمقصود هنا أبواه، يعقوب وزوجه.

قد يبدو السجن ضيقًا ومحصورًا، وتبدو البداوة فضاءً رحبًا.

لكن في الجوهر، هناك عمق مشترك بينها. عمق يجعلهما متشابهين رغم اختلاف السطح الظاهر.

في السجن، كان هناك **سلبٌ لفاعلية يوسف** عليه السلام، كان هناك تحييد لإمكاناته، كان هناك إهدار قسري لطاقته، ولكل ما يجب أن يستخدمه. (استطاع يوسف أن يثقب جدار السلب في زنزانته، ولو بثقب دعوي صغير، لكن هذا أمر آخر).

وفي البداوة، لم يكن هناك قضبان مرئية، كان الفضاء يبدو رحبًا، لكن كان هناك ذلك الإهدار القسري للطاقات الإنسانية، كان هناك ذلك العيش على الهامش، الذي يعزل الإنسان عن أداء دوره الذي خُلق من أجله.

ربما كان الفرق بين السجن والبداوة، ليست القضبان والجدران. بل الفرق هو أن ذلك التحييد والتهميش عن أداء الدور الإنساني، يكون في السجن أمرًا قسريًّا، ظاهر القسرية أما في سجن البداوة، فإن السلاسل والقضبان تكون في الداخل، داخل الإنسان نفسه، لكنها تمنعه من أداء دوره الإنساني... بأكثر مما تستطيع القضبان الحديدية في السجن.

النتيجة عمومًا واحدة.

وإرادة الإنسان، في الحالتين، هي التي تخرجه من هذا التحييد والتهميش. يمكن لها أن تحدث ثقبًا في ذلك الجدار، ولو عبر دعوة مع السجَّان نفسه.

والإرادة نفسها هي التي تجعل الفرد القابع في سجن البداوة ينفق من بين قضبانها ويخرج منها.

***

وهكذا كان.

تلاقى الخطان، وتفاعلت الإرادة الإنسانية، الإرادة التي كلفها الله -عز وجل- بأداء فعل التغيير، تفاعلت مع معطيات الأحداث تفاعلًا إيجابيًّا محكومًا بإرادة التغيير، وانتهى الأمر بالوصول إلى العرش. عرش أقوى الحضارات في عصره وزمانه، حضارة مصر.

ولو أن إرادة مستلبة داخل قضبان البداوة والسجن على حد سواء تعاملت مع المعطيات، لما كانت قد وصلت الأحداث إلى العرش.

لو أن يوسف كان مستلب الإرادة، ولا تسكنه تلك الرؤيا التي جعلت طموحه عملاقًا، رؤيا الكواكب وهي تسجد له، لبقي حبيسَ سجن البداوة بطريقة أو بأخرى، لبقي داخل القضبان لأن القضبان ستكون في داخله. بل إنه ما كان قد خرج من البئر التي ألقاه فيها إخوته، حتى لو كان قد خرج، كان سيظل حبيسًا داخل لحظة الغدر وسيجعله ذلك غير قادر على التغيير، وكان سيظل حبيسًا داخل السجن حتى لو فتح له سجَّانوه الباب. كان سيحمل سجنه معه ويمضي، سيظل يتلفت خائفًا مرتبكًا، بالضبط كما نفعل نحن!

لكن لا، ليس يوسف، مرة بعد أخرى، يخرج أقوى، وأكثر استعدادًا، ويحطم كل القضبان، قضبان البداوة، قضبان أنه كان على الهامش،

قضبان البقاء في لحظة غدر إخوته به، لحظة البئر، قضبان اللحظة التي بيع فيها بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة، قضبان السجن المباشر.

لكن، مرة بعد أخرى، كان تحطيم القضبان ترقيًا في درب صنع الحضارة.

وقد نقل معه قومه، الذين كانوا مجرد بدو.

إلى أن يكونوا معه، على العرش، على قمة حضارات عصرهم.

***

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ ستذكرنا بمجيء آخر.

كان هذه المرة سيدتنا مريم، في لحظة صعبة مرت بها ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: 23].

ما الرابط بين هذين المجيئين؟

الرابط هو أن الخروج من بداوة العيش على الهامش (مخاض) لا يقل أهمية عن مخاض الولادة، إنه مخاض يخرجك من العيش على الهامش، المساوي تمامًا للعدم، ليضعك حيث يجب أن تكون، في موقع الفاعلية، موقع الخليفة على الأرض، على عرش التمكين والعطاء الحضاري.

وكان مخاض مريم ثمنًا لكي تتبوأ مكانتها كسيدة نساء العالمين.

وكان مخاض الخروج من سجن البداوة ثمنًا للوصول إلى العرش.

***

وإذا كنا قد اخترنا لأسباب عديدة أن نكون ممن يعيشون على الهامش ويسكنون الأسمنت، فإن القرآن يمكنه أن يدلنا دومًا على الخروج من البدو، على الذهاب إلى هناك، حيث يجب أن نكون، حيث القمة، حيث العرش.

القرآن، لو فهمناه، يمكنه أن يكون معدلًا نكسر به قضبان زنازيننا، ونثقب به جدران سجوننا (زنازيننا وسجوننا التي نحملها في رؤوسنا).

القرآن يمكنه أن يغير موقعنا من الإعراب، فيجيء بنا من الأعراب والبدو إلى حيث القمة، القمة التي خُلقنا من أجلها..

إنسان العصر الحديث يتحدث إليكم

نمتلك جميعًا فضولًا إنسانيًّا يدفعنا أن نعرف كيف كان البشر يفكرون في عصور خلت. كيف كانت مشاعرهم، وكيف كانوا يعبرون عنها، وكيف كانت رؤيتهم للحياة. ربما نعلم الكثير عن عظماء التاريخ وكبار قادته، ونعرف عن منجزاتهم وفتوحاتهم وانتصاراتهم وهزائمهم. لكننا نعلم أقل من القليل عن الإنسان العادي الذي عاش في ظل ذلك. لا نعلم شيئًا عن معاناته وقلقه وأزماته، لا نعلم إن كان سعيدًا في ظل انتصارات الإسكندر أو أنه قد فرح بهزيمة نابليون. لا نعلم كيف كان شعوره تجاه كل ذلك، ولا كيف كان يرى نفسه خلال ذلك كله. ولعلنا نتمنى لو امتلكنا وثيقة حقيقية توضح لنا ذلك، وثيقة بلسان حال الإنسان العادي، وليس بلسان حكوماته وملوكه ونخبه.

لو وجدنا مذكرات، أو يوميات، أو خواطر كتبها إنسان تلك العصور لتوضحت لنا الصورة غير الرسمية، الصورة الحقيقية، لما كان يحس به الإنسان في تلك العصور.

وبعد عصور من الآن، سيفكر الناس بنا بالطريقة نفسها. سيتساءلون كيف كانت مشاعرنا تجاه كل ما حدث في عصرنا، كيف انعكست انتصارات عصرنا، وهزائمه، علينا من دواخلنا.

الإنسان المعاصر لو أنه كتب ما يشعر به، لو أنه ترك رسالة لعصور قادمة توضح حقيقة ما كان يحدث في داخله. ماذا كان سيقول؟

أنا إنسان العصر الحديث، إنسان العلم والتكنولوجيا، الإنسان الذي نبذ الخرافات وراء ظهره منذ زمن طويل، وترك الإيمان بكل الأمور التي لا يراها حقًّا، ولا يمكن أن يتحسسها حقًّا.

أنا إنسان العصر الحديث. لا أومن إلا بما هو واقع عملي، وقابل للتطبيق. لا أومن إلا بالعلم التجريبي، وبما يمكن أن يدخل في نطاقه. ومستعد على الدوام أن أتخلى عن أي شيء يثبت أنه غير علمي. حتى إني مستعد أن أتخلى عن إيماني بنفسي، إذا ثبت أن نفسي هذهِ غير موجودة.

لكن منذ أن جعلوا مني فأرًا للتجارب النفسية التطبيقية، ووضعوني داخل أنبوبة الاختبار الجامدة الباردة، وأنا لم أعد متأكدًا من شيء، لم أعد متأكدًا من إنسانيتي، لم أعد متأكدًا من شيء غير أني مجموعة حواس وغرائز قابلة للفحص داخل أنبوبة اختبار مستقلة.

ومنذ فقدت إيماني بنفسي، وأنا لا أعرف طعم الإيمان بأي شيء.

***

أنا إنسان العصر الحديث المتأرجح بين خرائط السلالات. قالوا إن جدي ليس جدي، ولكنهم لم يجدوا لي جدًّا بديلًا، وجدوا فقط أبناء عم تتشابه جيناتي معهم، لكني لا أشبههم. الفرق الذي بيني وبينهم قد يكون ضئيلًا في شجرة الجينات، لكني مختلف جدًّا.

لقد سلبوني جدي ونسبي وشجرة عائلتي. وبدلًا عن كل ذلك منحوني شجرةً لأتسلق عليها مع أبناء عمومة مفترضين.

ومن يومها وأنا أشعر أني لست أكثر من لقيط وجدوه على باب الملجأ في ليلة ماطرة.

وأحيانًا صرت أتصرف فعلًا مثل أولاد عمي المزعومين. بل إني صرت أنافسهم وصرت حتى أسوء منهم. كل ذلك لأقنع نفسي أني أنتمي إليهم.

لكن ذلك لم يزدني إلا ضياعًا، وقلقًا، وحنينًا لذلك الجد السليب، والنسب الواضح.

***

أنا إنسان العصر الحديث. إنسان فرويد ونظرياته وتحليلاته وما نتج عنها من مدارس. لم تكن أريكته مريحة تمامًا، فأبدلوا بها كرسيًّا عاديًّا، لكن الأسئلة لم تتغير كثيرًا.

أخذني فرويد. جعلني أنام على تلك الأريكة. سألني أسئلة اعتيادية. وكلما أجبته، صرخ: «**الجنس**»، «**الجنس**». كلما قلت شيئًا عما في داخلي، عن حلم لي، أو عن طموح، أو عن قلق يأكلني أو ألم ينهش في، كلما قلت شيئًا، أجاب هو بالجواب نفسه: «**الجنس**»، «**الجنس**».

وأنا لا أنكر الجنس في داخلي. وأنا لا أنكر أني أحبه. لكني أستنكر أن يقلصني أحد إلى مجرد رغبات تتحكم بعضو تناسلي. لا أفهم كيف أصبحت ميولي الجنسية تختصر هويتي. أنا كون من الميول والرغبات في الاتجاهات كافة. كيف اختصرت هويتي في ميولي الجنسية فحسب؟ كيف أصبحت أقضي الوقت وأنا أتصرف على هذا الأساس (**ليس المهم أين ولا كيف، المهم فقط أن أستعمله**) وأكاد أحيانًا أصدق أن ليس في داخلي سوى هذا الشيء، وأتعامل مع نفسي على هذا الأساس، لقد صمموا حياتي بهذا الشكل، أجلسوني على الأريكة ونوموني مغناطيسيًّا. قالوا لي إني لست أكثر من هذا.

وأكاد أقتنع. لكني أحس أني أكثر من ذلك، فالخواء يملؤني كلما زدت من هذا الذي يقولون إنه كل ما عندي. وهذا الخواء يعذبني، وكلما زدت، زاد. وزاد. وزاد عذابي معه.

وإذا التجأت إلى طبيبي النفسي، حاول أن يجعلني أتأقلم مع هذا الخواء، وأتقبله كما لو أنه كان جزءًا مني. لن يحاول أن يملأه، أو يسده. **فقط أن أكون شجاعًا لأقبل الأمور كما هي.**

وسيأخذ فاتورة باهظة الثمن. فقط ليقنعني بأن أقبل الأمور كما هي.

***

أنا إنسان العصر الحديث. أنا إنسان البيولوجيا والهورمونات. أفهموني أن كل ما أشعر به ليس سوى تأثيرات لهورمونات صماء وبكماء وعمياء تفرَز في داخلي. هورمون للفرح وآخر للحزن. هورمون للنوم. وآخر للنشاط. هورمون للغضب. وهورمون للحب. كل شيء في النهاية ليس سوى محض هورمونات، تفرَز في الدم، وتغير من سلوكي ومن مشاعري وحتى من أفكاري. وذلك يسهل الأمور أكثر، فكل مشاعر إحباطي وقلقي وحزني وضياعي سيكون مردها إلى أنها مجرد معادلات كيميائية باردة وجامدة. وممكن تحويرها وتغييرها بمعادلات كيميائية أخرى باردة وجامدة أيضًا، عبر عقار أو هورمون صناعي يعدل هذا التفاعل ويوجهه بالاتجاه الآخر، المضاد الذي أريده.

لكن قشعريرة باردة تسري في جسدي عندما أفكر بتلك المعادلات الكيميائية الجامدة، أعني أني أحس أن ما يدور حقيقي، أشعر حقًّا، وأحب حقًّا، وأتألم حقًّا.

وينفطر قلبي حقًّـا.

وفكرة أن كل ذلك محض معادلات كيميائية والتداخلات فيما بينها تجعلني أشعر بالبرد حقًّا.

أتوق إلى دفء بعيد وحقيقي يلفني ويضمني. حقًّا، دفء وحنان. كدفء وحنان الرحم. أو أكثر.

***

أنا إنسان العصر الحديث. إنسان عصر التسوق النهم بلا منازع. أخبرني مدير البنك إني أساوي حقًّا بقدر ما أمتلك. ثم أوضح ذلك بأني أساوي بقدر ما أستهلك. بقدر ما أكدس البضائع عندي في البيت حتى لو كنت لن أستهلكها. أو حتى كنت غير قادر على سداد أقساطها إلا بعد سنين طويلة.

ومن يومها وأنا أشتري وأشتري وأشتري. أجد في هذا الشراء سر وجودي كله. هكذا فهمت الأمر. وهكذا فهمه الجميع من حولي. إذا كنت مسرورًا فإني سأشتري السلع لأحتفل بسروري، وإذا كنت مكتئبًا فإني سأشتري السلع لأنسى كآبتي. إنني فقط أشتري -**لا شيء آخر**- أدرس وأنال شهادتي لأتمكن بعدها من الكدح والعمل من أجل أن أشتري. ليس هناك من هدف آخر في حياتي. ليس سوى الشراء والتسوق!

لا أدري. لكني أشعر أن الأمر ليس على ما يرام. وأن هناك هدفًا آخر غير التسوق. بل لا بد أن يكون هناك هدف غير التسوق. لا يمكن أن نكون قد خُلقنا من أجل أن نذهب إلى المول أو السوبر ماركت ونملأ تلك العربات المعدنية بكل تلك البضائع من الرفوف.

لا بد أن يكون هناك في الحياة ما هو أكثر من ذلك.

نعم. ثمة هدف. أذكر ذلك بشكل غامض. كما لو أني أذكره، كما لو أني رأيته مرة ثم أضعته. أين؟ أين؟ لا أدري. ربما تاه عني بين كل تلك

الأشياء التي أشتريها. سأبحث عنه عندما أزيحها وأرميها في القمامة، **حتى قبل أن أفتحها.**

***

أنا إنسان العصر الحديث، إنسان اللحظة العابرة، إنسان «**الآن**» – **ولا شيء مضمون غدًا.** أنا إنسان «**كل ما نملكه هو الآن**». «**وكل ما نستطيعه هو التمتع بالآن. باللحظة العابرة**». ألقموني ذلك مبكرًا. وكان معناه الوحيد أن عليَّ أن أتمتع بكل لحظة تمر عليَّ كما لو أنها لن تعود أبدًا. وكان معنى ذلك أن اللحظة الراهنة هي البعد الزمني الوحيد الذي أنتمي إليه. وأن المتعة هي كل علاقتي بهذه اللحظة. بلا ضابط أو رابط من أي نوع آخر.

وأتخمت نفسي حتى السأم بكل أنواع المتع المتاحة، **بلا ضابط ولا رابـــط**. وانتهى الأمر بي وتلك اللحظة العابرة تقتلني، تذكرني بأني عابر مثلها، وأني لن أكون سوى شيء تافه، لن يُذكر بتاتًا. **بعد مرور بضع لحظات عابرة**، أتفه من ذبابة وقفت لثوان على جدار الزمن دون أن تترك أثرًا على أي شيء حولها.

نعـــم. إنني عابر مثل تلك اللحظة، وذلك مخيف مثل كوني وحيدًا في مجرة غير مأهولة بالسكان.

أو أسوأ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

أنا إنسان العصر الحديث. إنسان عصر الفضاء والوصول إلى الكواكب السيارة.

لقد وطئت أرض القمر بقدميَّ هاتين وأرسلت آثاري إلى الكوكب الأحمر. ولم يبق شبر في أعماق المحيط لم أتفرس فيه وأغزه ولم يبق كهف في جبل، أو شجرة في غابة لم أدرسها وأنقب فيها.

لكن بعيدًا بقيت عن نفسي، **صعدت إلى القمر والمريخ، وتحولت في مجاهل الغابات وأعماق المحيطات.** لكني لم أذهب إلى نفسي **-لم أستكشفها-** لم أحاول سبر أغوارها والتنقيب في داخلها.

لم يبق معدن رخيص أو ثمين في باطن الأرض إلا واستثمرته. إلا المعدن الموجود في داخلي. تجاهلته. غضضت النظر عن وجوده. لم أحاول الدخول لاستثماره. كما لو أني كنت خائفًا من مواجهة نفسي. كما لو أني كنت خائفًا من مواجهة نفسي في المرآة تحت.

صعدت إلى القمر. ونزلت إلى باطن الأرض. لكني لم أذهب قط إلى نفسي.

وأظن أني أحتاج إلى الذهاب إلى هناك، إلى العودة إلى هناك.

***

أنا إنسان العصر الحديث. إنسان الفضاء السيبراني والذكاء الاصطناعي. أنا إنسان الشاشات. أستطيع أن أكون أينما أريد ببضع نقرات. أستطيع أن أكون أي شخص أريده ببضع نقرات فقط! أستطيع أن أصل إلى أي معلومة، أي موقع للمعلومات، فقط خلال أجزاء من الثانية.

أنا إنسان التواصل الاجتماعي. نقرات فقط وأستطيع التحدث مع أي شخص. لكن ذلك لم يسهل التواصل، لقد سهل التحدث فقط. **وبينما يضيء اسمي على تلك التطبيقات، فإن قلبي يبقى غارقًا في عتمته.**

ثورة المعلومات ألهتني. أكلت جزءًا من وقتي. لكنها لم تسهل تواصلي حقًّا مع نفسي، مع الآخرين، ومع الحقيقة التي تلف هذا العالم. بل أصدقكم القول.. أحيانًا أشعر أن ثورة المعلومات قد تكون زادت من ضياعي. أغرقتني في معلومات غزيرة كالقش.. ولم أعد أعرف بأي قشة أتعلق لأنجو من الغرق.

***

أنا إنسان العصر الحديث. أنا **النخبة الناجحة**. أنا من تطمعون إلى أن تصلوا إلى ما وصلت أنا إليه. أنا كل السعادة التي ترغبون فيها. أخوض فيها وأرتع ليل نهار. تعرفون الفردوس الذي حلمت به الأجيال السابقة لقرون؟ أنا أسكنه. هو عنواني الدائم. هو مقر إقامتي الدائمة.

نعم. وأنا سعيد لأنكم ستحسدونني. سعيد بسعادتي حتى لو لم تأت بعد. سأحقق الأصفار الستة في حسابي البنكي. سعيد ببيتي الضخم الذي أحلم به وسأحققه يومًا ما. وبالبيت الصيفي حيث سأقضي إجازات نهاية الأسبوع. سعيد بإجازتي الطويلة التي أخطط لها منذ سنوات في ذاك المنتجع في الكاريبي، حيث الليلة الواحدة في ذلك الفندق الفخم تكلف بقدر كلفة إجازاتكم الرخيصة كلها.

وأنا سعيد بعائلتي. سعيد بزوجتي الحسناء التي **لو مرت أمامكم، لأدارت رؤوسكم. وسعيد أنها تنفق ثروة طائلة من أجل أن تحافظ على جمالها، سعيد بها حتى لو لم ألتقِها بعد. سعيد بأولادي اللامعين، وبقدرتي على تأمين أفضل الجامعات لهم ليدرسوا فيها. وشراء أعلى الشهادات ليكونوا سعداء هم أيضًا.**

نعـــم. إنني سعيد جدًّا. سعيد لقدرتي على إثارة غيظكم وحسدكم. سعيد لأني في مكان أنتم مستعدون لدفع كل شيء من أجل الوصول إليه.

نعم. إنني سعيد جدًّا. وتستطيعون أن تروا ذلك على وجهي إن لم تصدقوا. **انظروا إلـــي. أترون كم أنا سعيـــد؟**

***

لكن شيئًا ما يهمس في أذني ويقول إن تكراري وتشديدي على أني سعيد يعكس شكًّا داخليًّا في أعماقي بهذه السعادة، إنه ينطوي على قدر من الإنكار لها. كما لو أني غير مقتنع وأظل أكرر ذلك لأقنع نفسي قبل أن أقنعكم. شيء ما يهمس ليقول لي إن الناس السعداء لا يقولون ذلك طوال الوقت.

لكن ذلك يحيرني شخصيًّا. ما الذي أريده حقًّا؟ المزيد من المال؟ المزيد من كل شيء عندي؟ لم أعد أرغب في شيء. لم أعد أرغب في أي شيء مما تعودت أن أرغب فيه ببساطة: **لقد اتخمت. ولا أعرف حقًّا ما أريد.**

***

لكني أعرف أنني كلما ازددت نجاحًا، وكلما صعدت أكثر إلى القمة، قل الأوكسجين في رئتي، والدم في شراييني، وزاد ضيق تنفسي.

وأعرف أني على قمة العالم حيث أقف، أشعر بالبرد وبانعدام الأمان.

نعم. على تلك القمة الباردة حيث أقف، لا أفكر بمكاني غير أنه «**هاويـــة**» أو مكان ملائم للانتحار.

***

لا. لست سعيدًا.

وتستطيعون أن تروا ذلك على وجهي. ابتسامتي ليست أكثر من تقلص في عضلات الوجه. ووجهي المشدود ليس سوى قناع يخفي تجاعيدي وانسداد شراييني.

لا. لست سعيدًا. لكني أحاول أن أبدو كذلك لتستمروا في غيظكم وأنتم تتأملونني بحسد.

تلك هي السعادة الوحيدة التي أعرفها، التي أحرص على الحصول عليها.

لكني أعرف أن هناك سعادة أخرى، كيانًا آخر ومقاييس أخرى.

وربما أود لو أني كنت أفهمها، وأنتمي إليها.

***

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: 2].

***

ربما يودون لو أنهم كانوا مسلمين -**حقًّا**- منتمين إلى ذلك الإله **الذي لا إله إلا هو**، منتمين إلى كونه **رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين**. ربما يودون لو أنهم انتموا إلى شريعة ذلك الإله المتجاوز لحدود الزمان والمكان، الصالح لاحتوائهم واحتضانهم سواء عاشوا في الاسكيمو أو في الصحراء، في الخيمة أو في الطابق التسعين في مانهاتن.

ربما يودون لو أنهم كانوا مسلمين -**حقًّا**- يعرفون ذلك الإله الذي لا إله سواه، ربما يودون لو أن «**رب العالميـــن**» كان هناك في رؤوسهم منذ بداية نشوئهم، ومنذ بداية تكون وعيهم، ربما يودون لو أنه قد

دخل في تشكيل مفاهيمهم، ساهم في أن يشعروا بإنسانيتهم، بإدراك معانيها وآناقها.

ربما يردون لو أنهم اعترفوا بحقيقة ضعفهم. ولجؤوا «**للرحمن الرحيم**»، يحيطهم كما يحيط الرحم بالجنين، ويمده بالدفء والحنان، ويمتص الصدمات لكي لا تؤذيه أو تخدشه. ربما يودون لو أن «**مالك يوم الدين**» لملم شتاتهم، وأعطاهم بوصلة يحددون فيها موقعهم. ويمنحهم طوقًا للنجاة، وقاربًا للإنقاذ.

نعم. ربما يودون لو أنهم كانوا مسلمين.

ربما نود ذلك نحن أيضًا..

جبل وأكثر

كل إنسان منا يضم في أعماقه قارَّة مجهولة، فيها مناجم كامنة. تضم كنوزًا وطاقات لا متناهية.

لكن هذه المناجم –بما أنها كامنة– فإنها يمكن أن تظل غير مكتشفة.

يمكن أن يأتي الإنسان إلى هذه الأرض، ثم يرحل عنها، وهو لا يعلم أي منجم كان يحمل في داخله. لم يخبره أحد، لذلك لم يحاول أن يستكشف، أن ينقب، وقضى أموره بأقل القليل من إمكاناته الكامنة. فقط بما كان يرشح على السطح، من تلك المناجم.

ربما بما كان يرشح، بمحض المصادفة.

يحدث ذلك دائمًا، أن تضيع مواهب وتُهدَر كنوز يمكن أن تسهم في صنع عالم أفضل، فقط لأنها جاءت في بيئة لم ترعها، ولم تنمها، ولم تسمح لها بالظهور أصلًا. بل لم يسمح لصاحبها أن يعرف أنها موجودة في داخله.

لكن ما كان يحدث دائمًا، أتى عليه حينٌ من الدهر، لكي ينتهي.

لكي تكون هناك على الأقل فرصة **كامنة** لإنهائه.

***

جاء القرآن الكريم لكي يفعل ذلك، من ضمن أشياء أخرى، جاء لكي يجعلنا نكتشف ما في داخلنا من مناجم، ننقب فيها عن الطاقات

المطمورة، ونخرجها من أعماقنا إلى العلن، لكي نستثمرها في جعلنا أشخاصًا أفضل، أشخاصًا أفضل يساهمون في صنع عالم أفضل.

***

والقرآن الكريم لا يفعل ذلك بمجرد أن نسمعه، وإلا كان تساوى الكافر والمؤمن في الأمر، بل هو يُحدِث ذلك بتفاعل المؤمن مع آياته، عندما ينزع المؤمن كل الحواجز التي تمنعه من التفاعل مع القرآن الكريم. ويسمح للقرآن بالتوغل في أعماقه، في عقله، وجوهره.

إذن هو تفاعل من طرفين، الجزء الخاص بالقرآن الكريم قد حدث، ومنذ حدوثه وهو لا يزال مستمرًا وممتدًا دون انقطاع.

أما الجزء الثاني، فهو خاص بنا، ونحن المسؤولون عنه.

إنه إما أن تسمح للقرآن أن يحفر في أعماقك ويجول فيها، منقبًا عن مناجم كامنة، ستغيرك وتغير كل ما حولك. عندما تتحول من الكمون، إلى التمكين.

وإما أن تقفل نفسك دونه، وتمنعه من الدخول، وليس بالضرورة أن يكون سبب المنع عدم الإيمان بل ربما يكون سببه الجهل، جهل من لا يعرف ما سيفعل لو دخل. من لا يعرف أن هناك أصلًا مناجم يمكن أن يكتشفها القرآن الكريم.

وهكذا فإن الآية نفسها يمكن أن تدخل في أعماق إنسان فتفجر مواهبه الكامنة وطاقاته.

وتنزلق على جلد إنسان آخر، دون أن تحدث أي شيء على الإطلاق.

على الإطلاق.

***

كل هذا جاء بالتفصيل في آية قرآنية كريمة، فُهِمت غالبًا ببعد واحد، ليس خطأ بالتأكيد، لكنه بعد لا يكشف كل ما تتضمنه هذه الآية من معان في الداخل.

أي آية؟

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: 21].

ما دخل هذه الآية بكل ما سبق؟

الآية تقول، بوضوح شديد، إن نزول القرآن على جبل، كان سيؤدي به إلى التصدع، إلى التشقق.

لكن الأمر لا ينتهي هنا، كما نتخيل، صحيح أن لصورة هنا ستقول لنا كم هو عظيم هذا القرآن، إلى درجة أن الجبل نفسه تشقق بنزوله عليه، لكن هناك ما هو «أبعد» من هذا. **مكتبة سُر مَن قرأ**

فالجبل، عندما يتشقق، **يفصح عما فيه من كنوز. عن ذلك المنجم الذي طمرت فيه تلك المعادن والثروات.**

والتصدع، قرآنيًّا، هو ليس مجرد التشقق كما قد نفهمه، بل هو **التشقق المنتج** تحديدًا، فـ ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: 12] – كما وردت في آية أخرى، هي، الأرض التي تتشقق لتخرج النبات. بالتوازي مع ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ [الطارق: 11] التي تنزل الماء.

إذن إنه ليس مجرد «تشقق» ينتهي الأمر معه، بل هو تشقق يخرج الكنوز التي لولا ذلك التشقق لربما ظلت مطمورة.

***

والمثل القرآني يصور لنا إنزال القرآن على جبل، ولكن بصيغة تعرف معها أن القرآن الكريم لم ينزل على جبل وإنما أُنزل على إنسان، هو أشرف إنسان على الإطلاق، عليه الصلاة والسلام. ولكن الإنزال كان على النوع الإنساني كله. من أجل أن يحدث ذلك التصدُّع المثمر في داخله، من أجل أن يخرج كنوزه الدفينة، من أجل أن يخرج كل تلك الطاقات الحبيسة التي لم يكن يعرف بوجودها أصلًا.

إلى أن نزل القرآن، وحدث ذلك التفاعل، فأزاح قشرة الجبل، ونقب فيه وفي مناجمه.

***

ولكن قد يقول قائل: ما دخل الخشوع هنا؟ ما علاقته بالأمر؟

علاقته متينة، ومباشرة، فالخشوع الحقيقي ليس مجرد دموع تُسكب، بل هو علامة من علامات التغيير الشاملة، قد يكون البكاء مجرد مظهر عابر لها، لكنها عملية تغيير داخلية عميقة، مرتبطة بعملية إخراج تلك الكنوز والطاقات.

ومن ثم استثمارها في صنع إنسان أفضل، يصنع عالمًا أفضل.

***

والذي حدث، على أرض الواقع، وفي ساحة تاريخية معينة، كان مصداقًا بالضبط لكل ما حدث.

كان عرب الجاهلية يعيشون على هامش الهامش، وما كان يمكن أن يكون لهم أي ذكر في صنع التاريخ والحضارة، كان لهم كل ما لأبناء آدم من مواهب وطاقات، لكنهم لم يكونوا حتى يعرفون بوجودها، كما الكثير من أبناء آدم في كل عصر وزمان. كانت البيئة الحاضنة لهم تمنعهم من اكتشاف ذلك. ومن استثماره.

ثم حدث ذلك الذي لن يتكرر على الإطلاق.

نزل القرآن الكريم.

وإذا بالإنسان يتصدع خاشعًا مثمرًا، مخرجًا كل طاقاته ومستثمرًا لها فيما يجب أن يكون.

وإذا بالتاريخ ينعطف.

وإذا بمن كان على الهامش، يصير في المدارة، بل في صدارة الصدارة. في قفزة غير مسبوقة، ولا ملحوقة.

***

دع القرآن يفعل ذلك.

دعه يتقدم ليصدعك، ليشق عنك غلافك، وبكشف لك، للعالم، كم تمتلك من كنوز في داخلك.

دعه يكشف لهم، ولك أيضًا، أن كل طاقات هذا العالم قد تنضب. لكن ليس طاقتك أنت.

دعه يتقدم ويتوغل، وينقب.

دعه يجعلك عامل مناجم لا يكل ولا يمل، لكنه لا ينقب في جبال بعيدة لمصلحة آخرين

بل هو ينقب داخل نفسه أولًا.

***

بعض الناس يؤمنون أنهم ليسوا أكثر من حفرة. يؤمنون أن الحفرة مكانهم الذي خُلقوا لأجله ومن أجله، لا يتصورون أن لهم مكانًا خارج الحفرة أو حدودها، ولأنهم لا يؤمنون بإمكانية الخروج منها، فإنهم يقضون حياتهم فيها. حياتهم حفرة، وموتهم يقودهم أيضًا إلى حفرة.

القرآن يمسكك من تلابيبك، ويهزك بعنف، ويضرب لك مثلًا كما لو كان يضربك في وجهك لتستيقظ من نومك.

إنه يقول لك: لا، لست حفرة. بل أنت أقرب إلى الجبل، بل أنت أكبر من الجبل، فلا ترض بأقل من ذلك.

وما دام ثمة حفرة تنتظرك بكل الأحوال، فكن جبلًا خلال حياتك على الأقل.

كن جبلًا وأكثر. ولكن دع القرآن يكتشف مناجمك. يجعلك تتصدع لتخرج أنفس ما فيك. أهم ما فيك.

كن جبلًا وأكثر، ودع القرآن يحفر فيك، ليغيرك، وبعد أن يغيرك، يكون دورك أنت لتغير العالم.

وإياك أن تكون حفرة.

ذاكرة العطر

بعض أفضل الأمور ستبدو سيئة جدًا في مطلعها. في بداياتها.

ستبدو كما لو أنها الشر المطلق، وأنها الكارثة التي ليس بعدها كارثة، وأنها أسوأ ما مر بحياتك، وأسوأ ما يمكن أن يمر بحياة الآخرين.

ولكن مع الوقت ستتكشف لك العاصفة عن شعاع من النور، وسيقودك هذا الشعاع إلى رؤية أخرى، إلى طريق آخر، وإذا ما بدا أنه سيئ جدًّا، وشر مطلق، يتضح أنه كان دربًا ومعبرًا نحو الخير كله. الخير الأفضل، ليس بالمقارنة مع العاصفة والكارثة، بل حتى بما قبلها.

ستكتشف لاحقًا، وربما بعد مدة طويلة، أن ما كرهته جدًّا وقتها، كان مجرد حلقة من حلقات التفاعل، أو حتى شرارة لها، ولكن لأنك كنت في وسط التفاعل في خضم حلقاته، فإنك لم تنتبه لهذا.

ولكن التفاعل، لاحقًا، قاد إلى نهاية مشرقة جدًّا، على الرغم من بدايته التي بدت مظلمة لعينك التي لا ترى إلا ما هو أمامها.

***

وهكذا فإن المخاض الموجع، وذلك الألم المقدس، ينتج عنه طفلٌ يبكي موسخ بالدم والبراز، لكن الطفل نفسه ستكون ضحكته أغلى ما لدى أبويه.

كل ما هو جميل ومهم في الحياة، لا بدَّ أنه بدأ يومًا ما هكذا، بمخاض مؤلم، أو بما بدا أنه الشر بعينه. لا بد أن يكون ذلك.

***

ولو أننا استجوبنا كل ما هو مهم، ومؤثر، وجميل في حياتنا، وسألناه عن جذوره، عن ذاكرته الأولى، عن بدايته لوجدنا ذاكرته تعج بما سيصدمنا، بما سيتناقض مع كل ما هو جميل فيه.

ولكن كل بناء شامخ لا بد وأنه احتاج إلى الكثير من الجهد، الكثير من العمل الشاق، إلى أن ارتفع، واستوى، وصار ما صار إليه.

رائحة العرق كريهة بالتأكيد، لا شك في ذلك.

لكن عندما يتصبب العرق في جهد مهم، في شيء (يبقى)، فإنه سيؤدي إلى أن تفوح رائحة أخرى مختلفة جدًّا.

كل عطر زكي الرائحة، احتاج يومًا إلى الكثير من العرق.. ليكون عطرًا.

صحيح أن حواسنا المادية عاجزة عن التقاط رائحة العرق في العطر، لكن العرق هناك في جينات العطر، في جذوره، في ذاكرته.

***

كل عطر نفتح أنوفنا لنملأها به، كان يحتوي حتمًا على رائحة كنا سنشيح بوجوهنا وأنوفنا كي نبتعد عنها.

إنها طبيعة الأشياء، قوانينها، سننها إن شئت. إنها ذاكرة العطر.

***

ولقد قال لنا القرآن ذلك بوضوح، كما يفعل دائمًا، ليرشدنا للضوء، للنور. للطريق الصواب.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ [البقرة: 216].

تكرهونه في البدء. تظنونه الشر، لأنكم ترونه بقصر نظر. ثم تتضح الرؤية لاحقًا.

فإذا به الخير كله.

***

فهل علينا إذن أن نرحب بما نكره؟ أن نصفق لما تراه أعيننا شرًّا، على اعتبار أنه الخير المؤجل؟

أبدًا.

الآية لا تتحدث عن ذلك على الإطلاق.

الآية تقول إن الجيل الأول من الصحابة كان موقفه من القتال طبيعيًّا مثل أي بشر طبيعي، لا يريده، يكرهه.

إنها تتحدث عن (القتال) الذي كُتب على المؤمنين، أي إنها تتحدث عن وسيلة مواجهة تغيير وتصدي الشر لم يعد هناك مناص من استخدامها، وليس عن الاستسلام غير المشروط باعتبار أن الخير سيأتي لاحقًا.

التغيير والتصدي للشر ومواجهة الباطل والقتال شكل من أشكاله المتعددة، ليس سهلًا. وليس وجهًا من أوجه الراحة بالتأكيد.

الاستسلام والرضا بالواقع مهما كان صعبًا، أسهل من محاولات تغييره.

تستطيع التأقلم والتعايش مع الواقع السيئ إذا اقتنعت أنه أفضل ما هو ممكن.

وستتعايش معه أكثر إذا استسلمت على أمل ألا يكون شرًّا كما تتصور، بل الخير.

هذا ما حدث في كثير من الأحيان، عندما أسيء استخدام الآيات القرآنية ووُضعت في غير موضعها.

***

والحقيقة هي أن العبور من واقع سيئ إلى واقع أفضل، يتطلب (فعل التغيير) الملقى على أكتافنا.

ولهذا جاء النص القرآني ليقول إن ذلك قد (**كُتِبَ**) علينا. لقد (**كُتِبَ**) علينا، وانتهى الأمر. رُفعت الأقلام، وجفت الصحف. لا شيء سيغير هذا.

لقد كُتِبَ علينا أن نبذل جهدنا بأشكال متعددة من أجل التغيير، من أجل العبور، مما سيبدو أنه شر مطلق، باتجاه الخير.

***

كل (المنجزات البشرية) مرَّت حتمًا بهذا القانون، بتتابع حلقاته. يأتي الشر في أشكاله المتعددة، ربما كارثة طبيعية، ربما غزو خارجي، ربما انهيار اقتصادي.

سيكون شرًّا مطلقًا لو أن الإنسان استسلم له، لو أنه رضي به وعامله بوصفه قدرًا يجب عدم تغييره.

لكنه لو التفت لما كُتِبَ عليه، لو أن إرادة التغيير انبعثت في داخله، لاستطاع أن يحول ما بدا أنه شر مطلق، إلى (شر) فقط، شر يمكن التغلب عليه وقهره، والوصول إلى (الخير)، الخير الذي بدا بعيدًا جدًّا لحظة وصول الشر، والخير الذي لم يكن من الوصول إليه، إلا بمقارعة هذا الشر، المقارعة التي قد يتثاقل منها البعض، ويصنفونها شرًّا أيضًا.

لكن الحقيقة أن إرادة التغيير تلك، التي كُتبت علينا كفرض، هي الباب الذي ندلف منه، من ذلك الشر، إلى الخير.

***

كل الحضارات الإنسانية، بكل إنجازات البشر فيها، مرت بهذا.

يأتي الشر بأشكاله المتعددة، فيضع الإنسان أمام خيارين.

خيار يقيده، يجعله يهبط أكثر في درك الشر، عبر الاستسلام له وانتظار أن يزول.

وخيار آخر، يفتح له باب الخير، يجعله ينفذ من ذلك الشر كله، نحو عالم أفضل. ليس بالمقارنة بما سبق...

بل أفضل حتى مما قبل اقتحام الشر. المهم أن يلتفت الإنسان لما كُتِبَ عليه. من أبسط أشكاله: الوعي. وصولًا إلى ما هو أكثر ظهورًا ووضوحًا: المواجهة والمجابهة المباشرة كما في القتال في سياق هذه الآية.

***

وهكذا فإن الكارثة البيئية، التصحر مثلًا، قد جعلت بعض الأقوام تستسلم له، وتجعلهم بدوًا جوَّالين، يجوبون الصحراء بحثًا عن مركز عابر. بعض العشب وبعض الظل.

لكن أقوامًا أخرى اعتبرت ذلك الشر تحديًا، تعاملت معه كحافز، واستجابت له. وبدلًا من الاستسلام لقدر الانحطاط، قاتلته لتغييره.

وبدلًا من أن يصيروا مجرد «رعاة». هاجروا إلى أرض أكثر خصبًا، إلى أحواض الأنهار.

لا ريب أن (الرحيل) كان صعبًا، وأن أولئك الذين بقوا، اعتبروه شرًّا ومشقة، وفضَّلوا البقاء على أمل أن تزول تلك الكارثة أو تضمحل آثارها.

اضمحلوا هم، ثم بِيدوا. وزالوا.

أما أولئك الذين تصدوا بالمسير والرحيل والاستجابة فقد صنعوا أعظم حضارات عصورهم، وانتقلوا إلى واقع أفضل ليس بواقع المقارنة مع كارثة التصحر مثلًا، بل بواقع حتى ما قبلها، عندما كانت الأمور مستقرة، لم ينتقلوا إلى واقع أفضل فحسب، بل ساهموا في نقل العالم كله إلى ما هو أفضل. وكل ذلك عبر إرادة التغيير التي سكنتهم ولولاها لبقوا على هامش الهامش.

***

وهكذا فإن التصحر في جزيرة العرب قد دفع أقوامها إلى حوض النهرين العظيمين. وهناك استطاعوا بناء أعظم حضارات عصرهم.

الجفاف مرة، والصقيع مرة، الأعداء الخارجيون مرات.

التحدي دومًا يأخذ أشكالًا متعددة. لكن إرادة التغيير واحدة.

إنها تلك التي (كُتبت) علينا. وعلينا أن نجعل من حياتنا قراءة لها.

***

ليس ذلك خاصًّا بالأحداث العظيمة التي تمر بها الأمم فحسب، بل هو قانون سائد حتى في أزماتك الشخصية.

إن استسلمت لأزمتك فإن ذلك سيجعلك مثل أولئك البدو، سيجعلك تهيم في أزمتك دون وسيلة للخروج منها.

أما إن اعتبرتها تحديًا، واستجبت لها عبر إرادة القتال في داخلك، فإنك ستخرج منها.

حتى لو لم تنتصر بالمعنى المباشر، فإن تجربة الأزمة بحدِّ ذاتها ستضاف لرصيدك الشخصي. ستكون انتصارًا لأنك ستخرج أقوى مما دخلت.

ستكون قد فتحت الباب، نحو ذلك الذي هو خير.

***

في كل مرة ترى منجزًا، ترى بناءً شامخًا، ترى نجاحًا، تذكر ذلك كله. تذكر ذلك التحدي الذي نكص عنده البعض، واستجاب له البعض الآخر. وكان ما كان في الحالتين.

في كل مرة تشم عطرًا زكيًّا، تذكر كل العرق الذي تصبب من أجل أن يكون ذلك العطر.

في كل مرة، عند مفترق الطرق تذكر «إرادة المواجهة»، وافتح أنفك لتتحسس ذاكرة العطر.

***

سباق المسافات الطويلة

حياتنا، في نهاية الأمر، وفي محصلتها النهائية، ليست سوى (سباق)، سباق بمختلف الأشكال والمسميات والسرع، يكون أحيانًا سباقًا مع أنفسنا، أو مع الآخرين، أو مع الزمن، أو مع السباق نفسه.

منذ أن نولَد، أو على الأقل منذ أن نبلغ، ومن الوعي، يبدأ ذلك السباق، تنطلق شارة البدء، وننطلق نحن، أو لا ننطلق، لكن السباق نفسه يبدأ، دون أن يلتفت لمن لا يصدق أنه بدأ.

البعض في هذا السباق، سيهرول راكضًا إلى نقطة نهاية خاطئة، ولن تفيده سرعته ولا جده واجتهاده، ولن يهم تصفيق الجماهير له، ولا تشجيعهم، ولا تصفيرهم وهتافاتهم. لن يفرق كثيرًا في الأمر، ما دامت نقطة النهاية التي يصل إليها خاطئة. ليست النقطة التي صمم السباق على أساسها، ومن أجلها.

البعض الآخر في هذا السباق سيتجاهل أن هناك سباقًا أصلًا، سيقضي الوقت في اللاشيء، أو في قتل الوقت، في اللعب هنا، وهرولة بلا هدف هناك، أو في وضع نقاط نهاية جانبية يقضي الوقت في الذهاب والمجيء بينها.

والبعض سيرفض أن يتحرك قيد أنملة، سيظل مكانه وهو يتصور أن السباق لن يكون ما لم يبدأ هو بالتحرك، جاهلًا -أو متجاهلًا- أن السباق لا ينتظر أحدًا، وأنه لا يلتفت لمن لا يلتفت له.

البعض سيقضي الوقت في خطوة إلى الأمام وعشر إلى الخلف، ولن يفيد ذلك إلا في جعله يتقهقر دومًا إلى الوراء.

وهناك بعضٌ آخر، سيشق الدرب الخالي أحيانًا، الوعر الصعب دائمًا، ليقترب، رويدًا رويدًا من نقطة النهاية الصائبة.

ربما لن يكون هناك مشجعون ولا مصفقون، ولا استقبال حافل لمن يصل إلى نقطة النهاية. ولكن لن يغير ذلك شيئًا من كونها هي نقطة النهاية الصائبة.

***

حياتنا في النهاية ليست سوى ذلك السباق.

بالأحرى ليست سوى ما نفعله في ذلك السباق. والقرآن الكريم، بإعجازه الذي يتحدى الزمان والمكان ينتقي لفظًا أبلغ من السباق، حين يختصر كل ما لدينا، كل ما لدينا حقًّا، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: 39].

إنه السباق الذي نتحدث عنه، لكن لفظ (السعي) أبلغ وأعمق من مجرد التسابق.

***

السعي في لسان العرب، هو العدو دون الشد، أي إنه دون الركض الشديد، وهو ما يطابق واقع حياتنا فعلًا، فنحن نركض ونهرول خلف

هذا الشيء أو ذاك، لكن معدل سرعتنا لا بد أن يتباطأ، لتكون المحصلة النهائية لما فعلناه في حياتنا: عدوًا، بلسان العرب.

بالضبط كما قال القرآن الكريم، حين أوجز في آية كريمة واحدة كل ما هو لنا، كل ما هو نحن.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: 39].

***

والسعي، في لسان العرب أيضًا، هو القصد، والمعنى متسق ومتناغم مع ذلك العدو، إنه ما قصدناه حقًّا في حياتنا، هل قصدنا أن تكون كما أراد لنا خالقنا أن نكون؟ هل كانت رحلة حياتنا (سعيًا) في تحقيق ذلك، أم إنها كانت سعيًا لتحقيق أشياء أخرى، ربما لا علاقة لها بحقيقة كينونتنا أو ما خُلقنا من أجله، حتى لو قمنا بأداء بعض الشعائر هنا وهناك؟

هل كانت حياتنا سعيًا لما أراده الله أن نسعى لنكونه، أم إننا سقطنا في فخ التخبط والركض خلف كل صرعة وكل القوالب التي قدمها لنا الإعلام.

هل كانت حياتنا سعيًا مدركًا لهذا أو ذاك، أم كانت، محض خوض مع الخائضين؟

***

وتفتح لنا مفردة (السعي) نافذة على أفق المعاني الممتدة المضيئة.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ﴾ [الصافات: 102].

الآية هنا تسلط الضوء على العلاقة بين إبراهيم وإسماعيل، و «بلغ معه السعي» هنا، كانت، حسب المفسرين، تعني أنه أدرك معه العمل.

أي صار مؤهلًا لتحمل المسؤولية، أي بلغ سن الحلم، الثالثة عشرة كما قال بعضهم.

هل كان العمل هو بناء الكعبة؟ هل كان رفع قواعد تلك الحضارة الجديدة المبنية على حجر أساس مختلف عن كل الحضارات؟

على الأغلب كان (السعي) منصبًّا على قصد كهذا. لم يكن سعيًا من أجل مصلحة فرد، أو شخص بعينه. أو من أجل مصلحة فردية.

بل كان السعي هنا، من أجل «النحن»، من أجل أمة، كانت لا تزال قيد التكوين.

***

ويفتح لنا السعي الإسماعيلي نافذةً أخرى على سعي آخر، على مقربة جغرافية وزمانية من رفع القواعد، لكنها تسبقه قليلًا.

كان إسماعيل آنذاك صغيرًا، لم يكن قد بلغ **السعي** بعد، وكان عطشان، قد بلغ منه العطش أشد مبلغ، وكان إبراهيم قد تركه وأمه في ذلك الوادي غير ذي الزرع.

وهنا، كان السعي.

سعي هاجر، بين الجبلين، بحثًا عن الماء.

سعي حثيث طلبًا لماء، لم يكن أصلًا للحياة فحسب، ولا وسيلتها فقط، بل اختصر، لحظتها، كل معانيها.

كان سعيًا من **أجل التشبث بالحياة -بكل معانيها- كان سعيًا ضد الموت، ضد اليأس، ضد العطش، ضد الجدب، ضد الاستسلام لكل مقومات الموت، والطرق المؤدية إليه.**

بين الجبلين ركضت هاجر، وصرخات صغيرها تدفعها للإسراع، لاقتناص فرصة الحياة، في شربة ماء تدفع الموت عنه.

إلى أن وجدتها.

***

ذلك السعي، المليء بمعاني الإيجابية، والمضاد لكل ما يبلغ لليأس والاستسلام، كان تجسيدًا شعائريًّا في فريضة الحج، فكانت خطوات هاجر بين الصفا والمروة من أجل اقتناص شربة ماء جسدت كل معاني الحياة، وكان السعي بين الصفا والمروة تتبعًا لهذه الخطوات التي تمكنت –وقتها– من صنع الحياة.

وسعينا اليوم، بين الصفا والمروة، في تلك الأشواط السبعة، ليسَ سباقًا للمسافات الطويلة بلا هدف ولا طائل، إنه ليس مجرد (سعي) و (هرولة) نؤديها دون معنى أو مقصد.

لا، **ذلك السعي بين الجبلين هو قصة حياتنا كلها، إننا نسعى شئنا أم أبينا، سواء آمنا أو لم نؤمن، صدقنا أو لم نصدق. إننا نسعى دومًا خلف شيء ما، أو خلف اللاشيء، خلف الهباء المنثور، المهم أننا نسعى.**

ولذلك تأتي الشعيرة، هنا، لتضع سعينا على سكته الصائبة، على الطريق الصحيح، سعينا هو من أجل **صنع الحياة أفضل**، من أجل شربة ماء جسدت كل معاني الحياة، فتجاوزت مجرد سد العطش لتكون أكثر من ذلك. لتكون زمزم الذي لا يزال يروي ويسد عطش الملايين.

إنه ليس أي سعي، وإن بدا للوهلة الأولى أنه يشبه ذلك، لكنه السعي الذي يحكمه ذلك الطواف الذي سبقه الطواف حول الكعبة، حول القيم الثابتة التي لن تتغير، حول ذلك الحجر الأساس لكل البناء اللاحق، الحجر الأساس الذي يمنح البوصلة لرحلة حياتنا الحقيقية، لسعينا على أرض الواقع.

وعندما تكون هناك بوصلة، تكون هناك ثوابت، يكون ذلك السعي مثمرًا. تكون نقطة نهايته صائبة، حتى لو كان الدرب إليها يمر بما لم يمر به أحد من قبل. المهم أن يفجر الماء الخير كله، مما كان يبدو قبلها صحراء قاحلة.

***

أنصت له جيدًا.

أنصت لهذا الصوت القادم من أعماق الصمت الذي تحدى القرون، إنه صوت بكاء لطفل صغير.

هل هو إسماعيل؟ ربما، وربما كان صوت أي طفل آخر، ربما كان صوت آلاف الأطفال مجتمعين. وهم يبكون لعطش، أو لجوع، أو لظلم، يئدهم صغارًا بلا ذنب، ويسلبهم فرصتهم في الحياة، يسلبهم حقهم في صنع حياة أفضل.

ربما كان هذا الصوت قادمًا من أعماقك، من طفل صغير داخلك، لا يزال يرفض أن يشارك في لعب الكبار، ما دام لعبهم يدمر هذا العالم.

ربما هي فطرتك، لا تزال تنبض رغم كل شيء، من أجل دور أفضل لك، ولها. لا تزال تصرخ من أجل أن يكون سعيك في هذه الحياة محكومًا بتلك الأشواط السبعة، اللامتناهية، حول قيم سماوية ثابتة.

ربما هذا الصوت، من أجل ألا تقضي حياتك في سباق للمسافات الطويلة نحو نقطة أخرى، غير نقطة النهاية الصائبة.

نقطة النهاية التي تنجز من خلالها حياةً، هي كماء زمزم، بعد طول عطش.

***

شجرة من اثنتين

للشجرة معنا، أو لنا معها، قصة طويلة.

لقد رافقتنا منذ البداية، وستبقى معنا حتى النهاية. وأنا لا أقصد هنا الحديث عن فوائد الشجرة في تنقية الهواء وصدِّ الرياح وتثبيت التربة.

بل أتحدث عما هو أكبر وأهم من ذلك.

أتحدث عن الشجرة، بشكل مطلق، وعن الإنسان، بشكل مطلق أيضًا. فلقد كان لنا، مع الشجرة، شيء ينبغي ألا ننساه، وإن نسيناه فذلك يعني أننا لم نستفد من التجربة شيئًا.

***

كانت الشجرة هي الامتحان الذي سقطنا فيه، ابتداءً.

خرجنا من الجنة هابطين إلى الأرض بسببها، أو بالأحرى بسبب عدم التزامنا، أو التزام أبينا آدم، بألا يقرب هذه الشجرة.

لماذا؟ لماذا كان التحريم؟ هل كانت ثمارها فاسدة، ولذلك حرِّمت؟

ربما. **ربما لكي نفهم أن ليس كل ثمار وكل نتائج -مهما بدت شهية وناضجة، وحتى لذيذة- بالضرورة صالحة، فبعض السم قد يبدو شهيًّا، وبعض السم لا تبدو نتائجه القاتلة إلا بعد زمن.**

وربما لكي نفهم **فكرة الحرام** نفسها وأهميتها في بناء الفرد والمجتمع، ربما لكي نتعود أن «الكابح» ضروري، وأن وجود حد قائم وثابت ينبغي عدم تجاوزه أساسي لكي ننمو ونزدهر في الاتجاه الصحيح.

بكل الأحوال، كانت الشجرة وقتها امتحانًا لم ننجح فيه، وبغض النظر عن الغواية الإبليسية في استدراجنا للسقوط، فقد كان سقوطنا أمرًا تحمل النوع الإنساني مسؤوليته، وهبط إلى الأرض وهو يحمل التجربة، بسلبية السقوط، وإيجابية التوبة التي تؤهل للعمل بقدرات أكبر.

***

في الأرض، لم يعد هناك شجرة بالمعنى المباشر، ولكن الحرام ظل موجودًا، ربما تلبس هذه المرة أشكالًا مختلفة ومتنوعة، تؤدي كلها دور الشجرة في الفردوس. إنها الحدود، الكوابح، التي تحفظ المجتمع، بمجرد عدم تجاوزها، ويكون تخطيها إنذارًا بالسقوط والانهيار ولو بعد حين. سيكون ذلك بأشكال مختلفة، لكن خطوط القصة والغواية والانهيار ستكون متشابهة لحد التطابق أحيانًا.

***

لكن رغم ذلك، ورغم أن علاقتنا بالشجرة تبدو أنها انتهت، فإن الأمر قد يكون غير ذلك.

كل شيء في النهاية، وفي البداية أيضًا، مرتبط بشجرة ما، ببذرة ما، تنمو ويصير لها جذور، وساق، والساق يقوى مع الوقت، تظهر له أوراق تزيده قوة وتمنحه البراعم، وشيئًا فشيئًا يصير شجرة لها ثمار.

كل شيء قائم، بغض النظر عن حكمنا الإيجابي أو السلبي عليه، مرَّ بكل هذه المراحل، بذرة، جذور ساعدته وسقته، ساق أظهرته إلى السطح، إلى أن استقوى وصار قائمًا.

طبعًا هناك بذور لا تجد لها بيئة مناسبة تحتضنها وتحويها، فتموت قبل أن تنمو ولا تصير «شجرة».

لكن كل ما هو قائم، كل ما نتخيله من أمور شاخصة وظاهرة للعيان، هو شجرة بطريقة ما، مرَّ بكل ما تمر به الأشجار، واحتاج إلى كل ما تحتاج إليه الأشجار.

وهو في النهاية إما أن يكون مثل «تلك الشجرة» التي سقطنا في امتحانها، امتحان ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]. الشجرة الملعونة.

وإما أن يكون منضويًا تحت تلك الجنة التي ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: 35].

قد لا تكون كل الأشجار، الحلال مفيدة بالدرجة نفسها، قد تكون بعضها أقل فائدة من أخرى، بعضها أقل قوة -أو أكثر- من أخرى، لكنها أشجار حلال.

بعكس الشجرة المحرَّمة، التي كان انتهاك حرمتها سببًا للسقوط.

وفي هذا كله مصداق لفكرة أن «لا حرام إلا بنص»، فالجنة كلها كانت مفتوحة، وكذلك الأرض.

لا حدَّ هناك إلا عندما يحدد، وإلا فالأرض والسماء كلها متاحة لك، ولعملك، ولإبداعك.

إلا «حدود» معينة، ستحفظ لك -إن لم تنتهكها- نموك فيما هو متاح، وهو أكثر بكثير من تلك الحدود.

***

كل شيء قائم، إذن، هو في النهاية شجرة، وكل شيء يمكن أن يكون شجرة لو أتيح له النماء في بيئة مناسبة.

حتى أبسط الأشياء.

حتى كلمة قد تقولها وتمضي.

فتكون بذرة زُرعت في نفوس الآخرين، فيتعهدونها بالرعاية والاهتمام، وتصير لها جذور وتنمو. إلى أن تصير شجرة.

كلمة، قد تصير نظرية، عقيدة، منظومة فكرية، تجد من يؤمن بها، وتجد ظروفًا تحتويها، تكون جذورًا تسقيها، وتربة تمدها بالمواد العضوية، ثم تصير النظرية واقعًا معاشًا.

كلمة، قد تعبر عن فكرة، قد تبدو مستحيلة ومغايرة، لكن أحدهم سيؤمن بإمكانية تحقيقها، وسيضعها في بيئة مناسبة، ثم ستصير، مع الوقت، واقعًا معاشًا.

ولا أقول أبدًا إن ذلك كله «إيجابي» بحد ذاته. ليس بالضرورة، إنها فقط طبيعة الأشياء، إنها السنن والقوانين وضعها عز وجل في خلقه.

قد تكون «الكلمة» «البذرة» خبيثة وسيئة. تنتج شجرة بثمار خبيثة ملعونة.

وقد تكون «كلمة» بذرة طيبة. تنتج شجرة طيبة مباركة. كل شيء يمكن أن يصير شجرة.

فإما أن يكون شجرة طيبة، أصلها ثابت، وفرعها في السماء.

وإما أن يكون شجرة خبيثة، اجتُثت ومالها من قرار.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ [إبراهيم: 24-26].

***

وقد حدث أن «الشجرة المحرمة» رسخت في أذهاننا، أكثر من سواها.

أكثر من كل الأشجار الحلال، ربما لأن مسيرتنا الأرضية -في عمومها- كانت تكرارًا لتجربة الخروج من الجنة، ولم يحدث اعتبار حقيقي واستفادة مما جرى. وهكذا ظلت «الشجرة» رمزًا للسقوط، رمزًا لخطيئة النوع الإنساني، الخطيئة الأولى التي أخرجتنا من الجنة.

صحيح أن آدم، ممثلًا الإنسانية ككل، قد تاب، وأن الله -عز وجل- قد تاب عليه، لكن يبقى شيء ما من الأمر كله لأن الشجرة **كانت رمزًا لسقوط لم يتم بالضبط تداركه.**

***

لكن هناك إجحافًا ما في هذا كله.

فالشجرة التي كانت رمزًا لسقوط الإنسان وإخراجه من الفردوس، هي رمزٌ أيضًا لنجاح الإنسان، في إعادة بناء الفردوس. إنه رمز أقل شهرة بالتأكيد، وسبب ذلك يعود إلينا، لأننا أهملنا الشجرة -رمز الصعود والنماء- وأصررنا على التمسك بالشجرة رمز السقوط.

لكن النوع الإنساني أنجز أيضًا، فردوسه الأرضي، أنجز ما محا به عار السقوط من الفردوس. وارتبط ذلك الإنجاز أيضًا بشجرة، شجرة النهوض، بدلًا من تلك التي كان انتهاكها مرتبطًا بالسقوط.

***

شجرة للنهوض؟

متى؟ وأين؟ عن أي إنجاز نتحدث أصلًا؟

إنه ذلك **الجيل الأول**، الذي أنجز إصلاح العالم حسب سياقاته وأدواته آنذاك، أنجز بناء الفردوس. الجيل الذي غير التاريخ، نحو ما هو أفضل، في غضون عقود ثلاثة فحسب. الجيل الذي تلقى المسؤولية كاملة على أعبائه، وانطلق من مكة، من عمق الصحراء، ليحمل النور إلى العالم أجمع. ذلك الجيل الذي «باع» نفسه من أجل قضية حق آمن بها. ذلك الجيل الذي «بايع» الله ورسوله من أجل ذلك، في بيعة قاطعة حاسمة غير قابلة للاستئناف أو التمييز.

هل سيكون محض مصادفة أن يكون موضع البيعة عند **شجرة**؟ هل يمكن ذلك؟

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18].

لا. ليس مصادفة، لا شيء في هذا القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه مصادفة.

وإذا كانت الشجرة، وانتهاكها، قد سببت السقوط، وانزلقنا عليها إلى سقوطنا الأول، فإن الشجرة الأخرى قد رمزت للتعويض عن هذا كله، كانت رمزًا للنهوض. كما لو أن النوع الإنسان عوض عن سقوطه الأول، عبر ذلك الإنجاز، كما لو أن الشجرة هنا كانت متسلقًا ومعبرًا، نحو نقل المجتمع والواقع إلى أفق أعلى.

لا شيء مصادفة بالتأكيد.

***

وحسنًا فعل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بقطعه تلك الشجرة، عندما لاحظ أن الناس صاروا يصلون عندها، فبفعله هذا حوَّل تلك الشجرة إلى ما يجب أن تكون، إلى رمز دائم، بذرها في نفوسنا، في أراض أخرى علينا أن نعمرها، جعل حدودها الأفق ومساحتها الأرض بأسرها.

في كل خطوة من خطوات حياتنا هناك تلك الشجرة، أو شجرة واحدة من اثنتين.

إما شجرة السقوط، وإما شجرة النهوض.

ونحن من يقرر أيًّا منهما سنختار.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

صديق الشدة

يقولون: أصدقاء الشدة قليلون.

ورغم أننا نعرف ذلك منذ نعومة وعينا، لأننا نتربى عليه، فإن اللحظة التي نتعرف على ذلك فيها، تكون شديدة حقًّا، كما لو أننا لم نسمع بذلك قط، تصدمنا الحقيقة عندما تحدث بنا، وكانت قبل ذلك مجرد مثل سائر، مجرد تجربة حدثت للآخرين وليس لنا.

أصدقاء الشدة قليلون.

ستلتفت بشدة، بحثًا عنهم، فإذا بمن كنت تعتبره صديقًا يختفي، كما لو أنه لم يكن، كما لو أن كل ما كان لم يكن أكثر من سراب، وعندما جاءت اللحظة، لم تجد إلا الظل، وبقايا الملح في فمك. نعم، أصدقاء الشدة قليلون.

وأحيانًا، عندما تكون (الشدة) شديدة، فإنك ربما لن تجد واحدًا منهم. ولا واحد.

وستقول لنفسك: أصدقاء الشدة ليسوا قليلين.

إنهم أصلًا غير موجودين.

إنهم خرافة، مثل العنقاء، والغول. والخل الوفي.

***

لكن دعك من لومهم، دعك من البكاء على ذلك كله، كن مكانهم، جرب ذلك، فكر أنك كنت أنت أيضًا، يومًا ما، وربما دون أن تدرك ذلك، من أولئك الذين لم يثبتوا أنهم من (أصدقاء الشدة). ربما هي الطبيعة البشرية التي تتراخى عند الشدة والضيق، ربما هذه هي طبيعة الأمور، وربما القبول السابق بهذه الحقيقة، وتخفيض سقف التوقعات من الصديق عند الشدة، سيساعد أكثر على تخطيك أزمة عدم وجوده عندها.

هذه هي طبيعة الأمور، عندك، وعندهم، فإذا أثبت أحدهم، وإذا أثبتَّ أنت غير ذلك، فذلك خير وبركة.

ولكن القانون السائد: أصدقاء الشدة قليلون.

وأحيانًا: لا وجود لهم أصلًا.

***

لكن هذا كله لا يطبق على صديق واحد، سيثبت أنه موجودٌ دائمًا، في الشدة وفي غيرها.

سيكون دومًا هناك، لن يخذلك أبدًا، حتى لو كنت خذلته دومًا، لكنه لن يقابل إساءاتك المزمنة المتكررة إلا بالإحسان، إلا بإثبات أن علاقته بك لن تكون بالمقايضة، وأنه سيكون صديق الشدة، حتى لو أثبتَّ دومًا أنك لا تستحق ذلك، ولا نصف ذلك، ولا عُشرَ ذلك.

***

صديقك هذا لا تربطه بك علاقة أنكما ذهبتما معًا إلى المدرسة، أو أنكما نشأتما سوية، وإن إخلاصه لك هو جزء من إخلاصه لتلك الذكريات المشتركة، جزء من إخلاصه لنفسه.

لكن لا، هذا يحدث مع أولئك الذين قد، وقد لا، يثبتون أنهم من أصدقاء الشدة.

لكن صديقك هذا خارج كل احتمال لئلا يكون هناك، عندما تحتاج إليه.

إنه سيكون بالتأكيد عند الشدة كما عند سواها.

***

هل ستسأل أين هو؟ وأين غاب عنك طوال هذه المدة وتركك تتخبط بين خيبات الأمل، وأصدقاء الشدة الذين لا وجود لهم؟

قبل هذا، عليك أن تحدد ما هي مواصفات صديق الشدة هذا؟

لكن مواصفاته تتحدد باسمه، إنه صديق الشدة، إنه الذي يقف معك في شدتك، يربت كتفيك، يقدم لك كتفه لتتكئ عليها، ويقدم لك منديلًا، يشد من أزرك، ويقويك، ويقدم لك يده لتنهض، وكتفه مرة أخرى، هذه المرة لتستند عليها. وربما ستطلب منه أن يساعدك، أن يدلك على طريق الخروج من الشدة.

إنك.. فعلًا كما تلاحظ، مرة أخرى، إنها طبيعتك البشرية مجددًا.

لكن، هل انتبهت، إلى أنك من بين كل المتطلبات، لم تقل قط إنه يجب أن يكون من لحم ودم؟

لم تقل قط إنه يجب أن يكون إنسانًا.

المهم أن يقوم لك بكل ما ذكرت، ويكون (صديق الشدة).

***

لا، ليس إنسانًا آليًّا، أنتجته مصانع الغرب لتواسي أولئك المتوحدين في شققهم الموحشة، ولا صديق الذكاء الاصطناعي الذي بُرمج ليكون مواساة لك.

وليس (حيوانًا أليفًا) تفضي إليه بهمومك لأنك لا تجد من تتحدث إليه سواه.

لا. (صديق الشدة) ذاك، ليس (وسيلة تفريغ)، ليس دواءً يخدرك عند شدتك.

إنه صديق شدة حقيقي.

لكنه ليس من لحم ودم.

***

صديق الشدة هذا، يكون أحيانًا على الرف، ربما يعلوه الغبار، ربما لا تعرفه إلا (كل سنة مرة). ربما وضعت في بالك احترامه والتبرك به، ولكن لم يخطر في ذهنك قط أنه صديق الشدة، لكنه كذلك.

إنه القرآن الكريم، كل ما بين الدفتين فيه، يعطيك صديق الشدة الحقيقي، الذي لن يهرب منك عندما تطلبه، ولن يغلق هاتفه عندما تحتاج إليه، ولن تقول لك زوجته، أو أمه، إنه في (الحمام)، أو (إنه مسافر)، وفي صوتها علامات لا تخطئ على كونها تكذب.

القرآن هو صديق شدتك الحقيقي.

ولأنه كذلك، فإنه ليس فقط صديق الشدة، بل هو صديق كل وقت وحين.

***

كل وقت وحين.

في عز انكسارك، سيهمس في أذنيك، بدلًا من التأنيب العالي، ويقول لك: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ [آل عمران: 139] سيدفعك إلى أن تتجاوز الأمر، لتكون من ﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [آل عمران: 139].

وفي غمرة وذهول فرحك بانتصارك، سيأتي لينبهك أن ذلك كله ما كان سيكون لولا إرادته، ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 17]، لكيلا يكبر ذلك الطاووس في أعماقك يحول نصرك إلى هزيمة.

إنه هناك، يدلك لا على الطريق فحسب، بل على الطريق الأفضل، على الطريق الصواب في زحمة تقاطعات الطرق. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

إنه وسيلتك في أن تكون أقوم، وفي أن يكون ما حولك أقوم.

وعندما يمتلئ صدرك بالهموم، بالإرهاق، بالتعب، وربما باليأس أو بالإحباط، كما يمكن أن يحدث لكل من هو من لحم ودم، سيأتي، هو الذي ليس من لحم ولا من دم، ليشفيك. ويكون فيه شفاء ما في الصدور.

وبينما يبدو العالم ظالمًا مظلمًا، فإنه سيكون لك النور، ويمدك بالرحمة.

وعندما ستعصف بك العواصف والهموم، ولن ترى أمامك الطريق سيكون هناك، ليكون لك هدى.

في كل وقت، وكل حين، ليس في الشدة فقط، ولكن في السراء والضراء والشدة والرخاء، وفي الشدة المقنعة التي ستعتقد أنها رخاء، وفي السراء التي تأتي بعد الضراء، سيكون هناك.

أبدًا ليس مثل فلان الفلاني، من أصدقاء اللحم والدم، لن يخيب أملك ويتركك وحيدًا.

***

ويأتينا القرآن الكريم، بسياق مذهل، كما يفعل دومًا، يحكي لنا عن أدق خصائصنا وأسرارنا.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: 27-30]

إنه ذلك الشعور المرير بالخيبة، قد يكون في أوضح مظاهره في يوم القيامة. لكنه موجود أيضًا في الدنيا، في مقدمات يستشعرها الفرد، عندما يرى فلانًا هذا الذي اتخذه خليلًا وهو يخيب أمله.

وسيتبين في السياق أن من يخذل هنا ليس هذا الفلان، بل الشيطان هو الذي سيكون للإنسان خذولًا، كما لو أن فلانًا الذي أضل عن الذكر كان يعمل لصالح الشيطان.

وسيأتي قول الرسول في السياق القرآني، مفسرًا سر الخيبة والخذلان، واضعًا النقطة على الحرف في ذلك كله.

***

هناك مشكلة واحدة في هذا الأمر كله، وهي النقطة التي وضحها السياق القرآني على لسان الرسول الكريم.

إنها مشكلتك مع صديق الشدة الحقيقي هذا.

وهي مشكلة تخصك أنت ولا تخصه هو على الإطلاق.

مشكلتك في أنك اتخذته مهجورًا.

صديق الشدة هذا، بدلًا من أن تتخذه صديقًا ملازمًا لك، لم تكتف بهجره، بل أصررت على ذلك، «اتخذته مهجورًا».

وكان (فلان) هو دومًا صديقك، صديقك الذي كان يخيب أملك مرة تلو المرة، «فلان» الذي تغير اسمه وشكله مرارًا وتكرارًا، لكنه بقي «فلان» ما، وبقي يخذلك.

***

وكما أن هذه المشكلة تخصك فإن حلها أيضًا يخصك، وهو حل ليس صعبًا جدًّا.

إنه بأن تغير قليلًا من هذه المعادلة، وتلتفت إليه، تعتبره صديقك، تسأله أن يقول لك، أن يخبرك، أن يدلك على الطريق، وأن يزيح حيرتك.

عندها، عندما ستفعل ذلك، عندما تنزله من الرف العالي المتروك ليكون في قلبك، بين البطين والأذين.

في شغاف قلبك، في القلب منه.

عندها...

لن تلتفت في شدتك لتجد لا أحد.

ستجده، هناك، كما كان دائمًا.

صديقًا للشدة.

صديقًا لك، على الدوام.

طريق مختصر للسعادة

يبحث الناس عن السعادة منذ أن وُجدوا على سطح الأرض، يبذلون من أجلها كل غالٍ أو نفيس، ربما لا تجدهم متفقين على شيء، كما اتفاقهم على أنهم يريدون السعادة.

لكن اتفاقهم هذا يخفي اختلافات عديدة، بل تناقضات عميقة، فهم يختلفون في تحديد معنى السعادة وتعريفها، حتى تكاد تتصور أنهم يبحثون عن أشياء مختلفة تمامًا، بل هم يبحثون فعلًا عن أشياء مختلفة تمامًا، كل ما يجمع بينها هو أنهم يطلقون عليها اسمًا واحدًا.

وهكذا، فإن السعادة قد تكون بالنسبة إلى شخص ما رصيدًا كبيرًا في البنك، وإجازة طويلة في منتجع ساحلي، وقد تكون بالنسبة إلى شخص آخر أحضان امرأة حسناء، وقد تكون ممثلة في (زوج مناسب) بالنسبة إلى فتاة تكاد سن الزواج أن تفوتها حسب معايير مجتمعها، وقد تكون في مجرد كأس من الشاي وقراءة كتاب ممتع بالنسبة إلى آخر، وقد تكون في مجرد نوم مطمئن على وسادة عادية.

النوم المطمئن على الوسادة لن يحمل معنى السعادة بالنسبة إلى ذاك الذي يريد أحضان امرأة حسناء، والرصيد الضخم قد يمحي السعادة بالنسبة إلى ذلك الذي لا يريد غير الستر والطمأنينة، الكتاب الممتع قد لا يكون ممتعًا على الإطلاق، بل قد يكون مثيرًا للضجر عند

أشخاص آخرين. وهكذا، فإن الجميع لا يبحثون فعلًا عن (السعادة) بل كل منهم يبحث عن «سعادته».

***

وما دام تعريف السعادة نسبيًّا لهذه الدرجة، فإن تعريف الشقاء سيكون نسبيًّا هو الآخر.

فالشقاء هو ضد السعادة، ولهذا فإنه يأخذ من السعادة مطاطية تعريفها، ونسبيتها.

وهكذا فإن الحياة المستورة، التي ربما تكون عين السعادة بالنسبة إلى البعض، قد تكون قمة الشقاء إلى البعض الآخر.

***

هل السعادة المطلقة وهم إذن؟ قالب مطاط يختلف حسب مقاييس كل شخص وتعريفاته؟ ألا يوجد معيار أعلى يمكن قياس السعادة – ومن ثم الشقاء– عليه؟

ألا يوجد معيار يمكن الرجوع إليه، لنفهم السعادة، من منظار لتجاوز مفاهيمها الشخصية العابرة، بعيدًا عن رصيد البنك، وكأس الشاي، والزوج المناسب، والمنتجع الساحلي؟

***

بلى، يوجد حتمًا.

معيار يتعالى عن أمزجتنا وظروفنا، معيار لا يتحدد بزمان أو مكان أو ظرف عابر.

معيار قرآني مطلق، يحدد لنا التعريف المطلق للسعادة، بالتالي، المعنى المطلق لما هو ضد السعادة: الشقاء.

***

هل سنتخيل أن معنى السعادة المطلق سيكون قريبًا من أي من معاني البحبوحة والعيش الرغد التي مرَّت، بمختلف تدرجاتها؟

ربما.

لكن المعيار المطلق يأتي لينسف كل أوهامنا، يجتثها من جذورها.

ويقدم لنا البديل.

***

مكة، والزمان الصعب.

الصدود، والكفر، والآذان المغلقة، والقلوب عليها أقفالها، وأكثر من هذا، الإيذاء، السباب، القمامة تلقى على أشرف وأطهر من سار على قدمين.

والحصار.

كان الزمان صعبًا جدًّا، لا يمكن أن يشابه، بأي حال من الأحوال، كل ما نتخيله من السعادة.

على العكس، كان قريبًا جدًّا، بدرجة أو بأخرى، من مفاهيمنا مما هو ضد السعادة، من الشقاء.

لكن!

يأتي القرآن. حاسمًا، فاصلًا، قاطعًا.

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: 2].

***

مع المفاهيم التي سادت لظروف معقدة ستبدو مهمة حمل الرسالة، وحمل القرآن، قريبة جدًّا من الشقاء. مع كل ما ترتب من حمل القرآن إلى العالم، من أذى، ومن نتائج سلبت ليس السعادة فقط، بل سلبت

كل معاني الراحة ممن حملوا تلك الرسالة، وبالذات منه عليه الصلاة والسلام. لكن لا...

ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى.

ذلك أن مفاهيمنا العابرة –الآنية– قد توحي لنا بذلك.

لكن القرآن لم ينزل قط من أجل ذلك.

قد يكون هناك تعب، قد يكون هناك جهد، بل إنه لا بد من أن يكون ذلك. كما مع كل الأشياء المهمة في الحياة، التي لن تأتي جاهزة أبدًا.

لكن ذلك كله لا علاقة له بالشقاء، بل ربما يكون مرتبطًا بما هو ضد الشقاء، بالسعادة، بمعناها الأعمق، بجوهرها المطلق، معزولًا عن كل تفاصيلها.

بالسعادة في أن تؤدي دورك الذي خُلِقت من أجله، ولو كان الأداء يتضمن تعبًا، يتضمن أن تتحمل أذى.

نعم. *ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى.*

بل لقد نزل من أجل إزالة الشقاء من هذا العالم، لتساهم في عالم أقل شقاء، وبالتالي أكثر سعادة، سعادة حقيقية متوازنة، نابعة من أداء هذا الدور.

دور إزالة الشقاء.

***

لهذا كان طبيعيًّا أن تأتي ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: 3]، بعد نفي الشقاء وإلغائه.

ذلك، أن الإنسان، يحتاج إلى من يذكره، في غمرة جهده وتعبه وانشغاله، بأهم ما خُلق من أجله، بدوره على هذا الكوكب.

التذكرة بأن الدرب الحقيقي إلى السعادة الحقيقية، قد يتطلب، ما سيبدو أنه الشقاء، حسب مقاييسنا الآنية، شديدة النسبية، سريعة الزوال.

***

البعض يذهب خطوة أبعد في المفهوم الخاطئ الذي لا علاقة له بما أنزله القرآن.

يعتبر أن الشقاء والمصاعب والمحن ليست جزءًا عرضيًّا يمكن أن يحدث أو لا يحدث في الطريق.

بل يعتبرها برهانًا على صحة الطريق.

لولا المحن، لشككت في الطريق. يقولون، وينسبون ذلك إلى السلف الصالح دون سند واضح.

أصبح الشقاء دليلًا على صواب الطريق كما لو أنه حتم مقضي.

والشقاء قد يحدث بلا شك. لكن هذا ليس حتمًا مقضيًّا ولا قدرًا حتميًّا.

ولأن هذا الفهم انتشر، فقد برر الكثير من الأخطاء والكوارث، تحت شعار: لولا المحن لشككت في الطريق.

بعبارة أخرى: لولا الشقاء لشككنا في الطريق.

بينما يقول القرآن شيئًا مختلفًا تمامًا.

ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى.

***

قل لي الآن، هل أنت سعيد بضياعك بحثًا عما توهمت دومًا أنه السعادة؟

هل أنت سعيد بالتخبط بين وهم وآخر؟ كل وهم يظل يستنزفك، تحت شعار أنه السعادة التي لن تكون أكثر من زئبق لا يمل من الهرب.

وهل أنت سعيد بأن تضيع حياتك بحثًا عن سعادة زائفة، نسبية، ليست أكثر ثباتًا من ظل مائل؟ دقائق قبل الزوال؟

وهل أنت سعيد بأن تظل تبحث عن طريق مختصر للسعادة، لكنه لا يؤدي بك إلا إلى متاهة متشابكة من أوهام السعادة؟

لا تتعب نفسك، ليس من درب مختصر هناك لها.

ليس من درب يوصلك إليها بلا تعب، بلا جهد، بلا ما سيبدو أنه الشقاء بعينه.

لكن المهم ما في النهاية، ما هو مهم فعلًا.

المهم هو أن السعادة الحقيقية أن تؤدي دورك الذي خُلِقت من أجله، دورك في إزالة الشقاء عن هذا العالم، الذي يزداد شقاءً دومًا بتلك السعادات الوهمية.

وتذكر ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: 2].

بل لتزيل الشقاء عن العالم..

***

«عدة الحلم»

ودومًا يقولون لنا: إن عمر الشباب هو عمر الأحلام النزقة، والتهور، والطيش.

دومًا يقدمون لنا الشباب في صورة مرتبطة بسيارة مسرعة غير مبالية بالقانون.

دومًا يقدم الشباب بصورة مرتبطة بالتمرد غير المسؤول، باللهو، بالعبث، أحيانًا بالمجون. ليس لهم هم سوى قضاء وقت ممتع، أو قتل الوقت. إنها «الصورة» التي صارت ملتصقة في أذهاننا عن الشباب، بل وصارت نموذجًا في أذهانهم، فما إن دخلوا تلك المرحلة من العمر حتى تقمصوها باعتبارها ما هو متوقع منهم.

ويكون ذلك أحيانًا صحيحًا.

أحيانًا فقط وليس دومًا.

***

في أحيان أخرى، لا يقولون عنها شيئًا، يحلم الشباب أيضًا، لكن أحلامهم لا تكون نزقة، ولا عابثة.

نعم. أحيانًا يتمردون، لكن تمردهم لا يكون محض تمرد. ويكون تمردًا ضد ما يجب أن يتمرد عليه.

إنهم أحيانًا لا يقتلون الوقت.

لكنهم يحيونه.

***

صورة أخرى، مناقضة تمامًا لما هو سائد، فيها شباب، وفيها حلم، وفيها تمرد.

ولكن، في سياق آخر تمامًا.

***

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

لقد كانوا فتية.

كان يفترض أن يكونوا في مكان ما، يلعبون الورق، أو أي لعبة أخرى، ربما يدخنون ويثرثرون، يقتلون الوقت، ربما يتسكعون هنا أو هناك، يتصايحون على لا شيء، ويضحكون من أي شيء، ربما سيشجعون هذا الفريق أو ذاك، ربما سيقضون الوقت متأملين في اللاشيء.

لكنهم «تمردوا» على كل ذلك، تمردوا على كل ما سيضعهم في كل ذلك لمجرد أن ذلك هو المتوقع ممن هم في مثل أعمارهم.

لكنهم لم يتمردوا فقط على المتوقع منهم.

بل تمردوا على قوانين مجتمعهم التي «**افترت على الله كذبًا**»، «واتخذت من دونه آلهة» وكل ذلك تسويقًا لظلم اجتماعي لا ينفصل أبدًا عن ظلم الشرك والوثنية.

لم يكن تمردهم لغرض التمرد بحد ذاته، لم **يكونوا ثوارًا لمجرد الثورة، لم يكونوا ثوارًا بلا قضية.**

لا. كل تلك مجرد مراهقة، سرعان ما تستطيع المؤسسات الاجتماعية المحنكة الخبيرة احتواءَها، واستيعابها، وحتى توظيفها عندها.

لكن تمرد أولئك الفتية كان من نوع مختلف، كان موجهًا ضد أساس مجتمعهم، ضد حجر الأساس فيه. الشرك الذي هو أكثر من مجرد أوثان متعددة، بل هو رؤية متناقضة للكون يتمزق بين أجزائها الإنسان.

لم **يكن ذلك قابلًا للتفاوض من قِبل أولئك الفتية.**

لو أن تمردهم كان يمس مظهرًا أو تفصيلًا عابرًا، لأمكن احتواؤه، لأمكن التفاوض عليه.

لكن ليس مع أولئك الفتية الذين ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

***

لكن لماذا كان الفتية تحديدًا هم الذين آمنوا في ذلك المجتمع الغارق في الظلم؟

ربما لأنهم فتية، عقولهم وعيونهم لم تُدجَّن بعد، ربما لأن المجتمع لم يدجنهم، لم يقتل الحلم فيهم.

ربما لأن البراءة فيهم لم تُقتل بعد، ولم ينضموا بعد إلى قطيع المجتمع، ولا يزالون **قادرين على الحلم بشروط أكثر عدالة، لعالم أقل ظلمًا.**

نعم، إنهم فتية، شباب لم ينخرط بعد في فساد هذا العالم وإفساده. سيحاول مجتمعهم جرَّهم سريعًا إلى ذلك، وتوريطهم ليكونوا جزءًا منه.

لكن، ليس مع هؤلاء.

***

لكن ما جعلهم قادرين على الرؤية المختلفة، أي سنهم الصغيرة نسبيًا، كان من ناحية أخرى نقطة ضعف، على صعيد البدء بإصلاح المجتمع، ذلك أن حداثة سنهم وقلة خبرتهم ستجعلان الآخرين «يستصغرونهم» ويرفضون حلمهم ورؤيتهم.

سيقولون: ***إنهم مجرد فتية صغار، إنهم « مغرر بهم»، إنهم... إنهم...***

***

وكان ذلك سيجعلهم أمام مفترق طرق: إما أن يبقوا في قريتهم، ليواجهوا خطر الاصطدام مع المجتمع، وهو الاصطدام الذي لن يكون لمصلحتهم، لأنه سيأتي في مرحلة مبكرة، مرحلة هشة، لا يزالون مجرد فتية: أحلامهم كبيرة، وإيمانهم كبير. لكن ذلك يحتاج –لكي يتحول إلى التطبيق– إلى استعدادات أخرى.

وكان أمامهم الخيار الآخر، الخيار الذي سيقدم لهم ولفكرتهم:

المأوى.

الكهف.

***

في فجوة الزمان والمكان تلك، في الكهف، وجد أولئك الفتية المأوى والملجأ الأمين الذي يحمي فكرهم من الاندثار والذوبان في محيطهم.

وجدوا الحاضنة التي تمنح فكرهم المناعة والحصانة، وتعطيه «الوقت» لينضج، وتعطيهم الوقت لينضجوا، ليصيروا أكثر قدرة على نقل أفكارهم من الرؤوس إلى الواقع.

كان «الاعتزال» فرصة لذلك، لم يكن «عزلة» فرضها المجتمع، بل كان اعتزالًا إراديًّا اختاره الفتية من أجل أن تكون أفكارهم -ويكون إيمانهم- طوق نجاة جماعية، ولو بعد حين، بدلًا من أن يكون إيمانهم ذريعةً لإنهائهم وإلغاء وجودهم.

لقد كان الكهف بمنزلة ذلك النفق الانتقالي، الذي مرُّوا به ومن خلاله إلى الضوء.

***

وقد يطول الوقت اللازم لذلك. قد يطول حتى يكون قرونًا ثلاثة، كما حصل مع أولئك الفتية.

لكن عامل الوقت كان لصالحهم، لم يكن ضدهم، بينما كان المجتمع الذي اعتزلوه يشيخ، والظلم الذي فروا منه يشيخ، بقوا هم شبابًا.

بقوا شبابًا لأكثر من ثلاثمئة عام.

بقوا قادرين على العطاء، على الحلم، لثلاثمئة عام.

وسيبقون دومًا، في خيالنا، وفي تصورنا، شبابًا.

كما لو أنهم اقتنصوا الشباب واحتجزوه عندهم.

بطريقة ما: جسدوا ذلك الحلم الإنساني بالبقاء شبابًا.

بطريقة ما سيبقون شبابًا، إلى الأبد.

***

وكان في عدم التحديد القرآني لعدد أولئك الفتية **بابٌ مفتوح، يمكن أن يضم كل من يمشي على خطوات أولئك الفتية، في درب خروجهم نحو الغد الأفضل.**

ذلك الكهف بابه مفتوح لكي يضم كل من لم تمت قدرته على الحلم، كل من يستخدم إيمانه مجذافًا للإبحار إلى عالم أكثر عدالة، وجناحًا يحلق به لكي يجعل الواقع يتطابق مع الحلم.

هل كانوا ستة، أو سبعة؟ أو ثمانية؟

ليسَ ذلك مهمًّا على الإطلاق. الأرقام ليست مهمة هنا تحديدًا، المهم هي تلك الخطوات التي قادتهم، عبر الكهف، إلى الضوء.

المهم هو أن ثلاثمئة من السنين، لم تزدهم إلا قوة، وإصرارًا، وشبابًا.

وأن الوقت مرَّ عليهم ليزيدهم قوة وحصانة ومناعة.

***

وخلال ذلك كانوا نيامًا فعلًا، لكن نومهم هذا في فجوة الزمان والمكان لم يكن **غفلة**، كان الناس في قريتهم –في حضارتهم– يبدون أنهم مستيقظون، يروحون ويجيئون، لكنهم كانوا في نومهم يسيرون، **كانت غفلتهم تجعل من يقظتهم مجرد مظهر عابر، لحالة متقدمة من السير، وحتى التكلم، في أثناء النوم.**

أما نومهم، فكان إمعانًا في الوعي وإبحارًا فيه، ولذلك فقد **توِّج بيقظة دخلت التاريخ.**

***

«وربك أعلم بعددهم وبعدتهم». طبعًا.

وإذا كان العدد مفتوحًا، فلربما كانت «العدَّة» التي امتلكها هؤلاء الشباب هي شبابهم أصلًا، بكل ما **يعنيه الشباب من القدرة على الحلم وعلى الرؤية بعين مختلفة.**

إنها «العدَّة» التي نمتلكها جميعًا –ولو لفترة محدودة من الزمن– لكننا نسيء استخدامها. فنضع «العدَّة» في غير موضعها، في قتل الوقت، أو تضييعه، في اللاشيء على الإطلاق.

أما أولئك الفتية، فقد استثمروا «العدَّة» أفضل استثمار.

فسبقوا وقتهم، وزمنهم، وعبروا إلى الضوء.

السؤال الجارح هنا هو: ماذا عن عدَّتنا؟

***

عمود فقري، للأولاد!

دون أن تفكر طويلًا. أجب بسرعة: ما الذي تريده لابنك أن يكون عندما يكبر؟ طبيب؟ طبيب جرَّاح اسمه مشهور ويظهر في الصحف والمجلات وله مشفاه الخاص ويعيش العيشة المترفة الناتجة عن ذلك؟

أم لعلك تريده مهندسًا مشهورًا؟ معماريًّا بارزًا يوقع باسمه على ناطحات السحاب، ويحصد الجوائز والتقدير. وأيضًا يحوز العيشة المترفة المترتبة على ذلك كله.

أم لعلك تريده مهندسًا مقاولًا، وستقول لنفسك إن ذلك سيكون أضمن وأسرع وأكثر راحة؟

ولعلك ستقول إن زمن هذه المهن قد ولَّى، وإن المضاربة في البورصة الآن أسرع الطرق وأكثرها أمانًا، بل ربما ستقول إن العولمة أفرزت مهنًا صارت محترمة وتدر مبالغ من المال، وما كان والدك مثلًا سيتمناها لك في أسوأ كوابيسه، لكنك الآن ستفكر بها جديًّا عندما تفكر بمستقبل ابنك.

ربما ستكون أكثر ذكاءً من أن تتورط بإجابة محددة، ستقول لك إن ربيت ابنك على أن يختار طريقه بنفسه، وسيعني ذلك غالبًا شيئًا من اثنين.

إما أنك زرعت فيه بعمق خياراتك وأولوياتك وصارت جزءًا منه، بحيث إنه سيفعل ما تريد كتحصيل حاصل، لكن تحت شعار أن هذا هو ما يريده هو.

وإما أنه دون مستوى «الطموح»، لكنك تريد أن تلقي بذلك على شعار الاستقلالية، حق الاختيار ولو كان حق الاختيار الخاطئ.

غالبًا نتمنى من أولادنا أن يكونوا كل ما أخفقنا في تحقيقه، كل أمنياتنا السرية وأحلامنا المحبطة، سنحاول أن يعوضونا عبر تحقيقها.

إن نجحوا في ذلك، سنقول لأنفسنا ولهم إنهم نجحوا بسبب دعمنا، وإن أخفقوا سيكونون خيبة أملنا وقد نؤكد لهم أننا نحبهم على الرغم من فشلهم! وعلى الرغم من تضحياتنا من أجلهم.

ما تتمناه لابنك أن يكون عندما يكبر، ليس مجرد أمنية لابنك الذي تحب، بل هو سؤال موجز عن رؤيتك للحياة، ولدورك، أو دور ابنك في الحياة.

إنه سؤال عن الذي كنت تريده أن تكون، الذي تتمنى لابنك أن يفعله بالنيابة عنك.

***

لن تشعر بأنك أخطأت في أي شيء من الخيارات السابقة. يمكنك أن تجمِّل كل كلمة منها بأن تقول: "طبيب يخفض من آلام الناس" أو "مهندس يبني بلده" -مثلًا!- لكن ذلك لن يعني أبدًا أنك تريد له أن يكون طبيبًا متطوعًا -بأجر رمزي- في مخيمات اللاجئين. أو أن يكون مهندسًا في منظمة (غير ربحية) إنك تريد له أن يعيش (النجاح) -أولًا- ولا بأس أن تنمق ذلك وتجمِّله بشعارات مناسبة.

طبيب ناجح. مهندس ناجح. أو رجل أعمال ناجح. ليس من تأنيب ضمير في ذلك. ليس من داعٍ للتشكيك في شرعية ذلك.

***

ما رأيك برجل سألوه سؤالًا مماثلًا، فقال إنه يريد من ابنه أن يكون "مقيمًا للصلاة".

سيفاجئك هذا، ستتلعثم مرتبكًا. لم يخطر ببالك الأمر طبعًا، لكن ستدرك معترضًا ألا تعارض هناك بين "النجاح في الحياة" و "إقامة الصلاة". بالتأكيد لا تعارض. على العكس، هناك تلاحم بين الأمرين في حقيقة الأمر.

ليس "إقامة الصلاة" على الرغم من "النجاح في الحياة"، بل "إقامة الصلاة" كسبب رئيسي وأساسي: للنجاح في الحياة.

لعل ذلك لم يكن في بالك؟

***

من كان هذا الرجل على أي حال؟

كان إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، أبا الأنبياء. ولم يكن بالضبط يجيب عن سؤال، بل كان يدعو الله -عز وجل- ومن خلال دعائه عرفنا ماذا سيكون جوابه فيما لو سأله، ماذا تريد لابنك أن يكون.

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: 40].

لقد طلب أن تكون ذريته مقيمة للصلاة.

هذه هي أولوياته.

***

سترد على الأغلب بالموافقة والإذعان. لكنك ستمرر أيضًا عبارة من نوع أن الزمن تغير. وأننا لن نصل -مهما حاولنا- إلى مقام الأنبياء.

وأنت محق في العبارتين. الزمن تغير، ولن نصل إلى مقام الأنبياء.

ولكن في الحالتين، لا علاقة لهاتين العبارتين بالأمر كله، فتغير الزمن لا يجب أن يفرز بالضرورة تغيرًا في القيم، **تغير الزمن يجب أن يفرز تغييرًا في الوسائل، في الأدوات، لا في الغايات.**

أما كوننا لن نصل إلى مقام الأنبياء، فهذه حقيقة، ولكنها حقيقة لا تلغي أننا يجب أن نقتفي آثارهم، لا أن نترك الطريق بأسره بحجة أننا لن نصل إلى ما وصلوا إليه.

ربما لم يتغير الزمن بقدر ما ندعي، ربما من تغير هم الناس، وتغيروا هبوطًا وهم يتصورون أن تطور الوسائل والأدوات يعني بالضرورة تطور المفاهيم وترقيها.

ربما الذي حدث العكس.

في الحقيقة، إن ما حدث هو العكس، تطورت الوسائل وتخلفت الغايات.

***

ويمكن أن يتصور أحدهم أن من سيتمنى لابنه -أولًا- أن يكون "مقيم الصلاة" سيكون درويشًا على الأغلب، شخصًا يقضي وقته في المسجد، بين انتظار لصلاة وأخرى.

لكن لا!

إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان أكبر من ذلك بكثير، وذريته التي دعا الله أن تكون مقيمة الصلاة كانت أبعد من هذا المعنى السطحي للصلاة.

أقصى ما يمكن أن نتمناه لأولادنا هو أن يكونوا ناجحين في محيطهم، بمقاييس محيطهم، أما إبراهيم وذريته من بعده فقد تركوا أثرًا أبعد من ذلك بكثير، لقد تمكنوا فعلًا من تغيير محيطهم، بل وتغيير قيم ومقاييس محيطهم، لقد تمكنوا فعلًا –وعلى المدى البعيد– من **إعادة بناء العالم**، لا يمكن أبدًا أن نقول: إن أيًّا منهم قد غادر العالم كما كان عندما دخله أول مرة. وهذا نجاح لا يمكن أن يُقارن أصلًا بذلك النجاح العابر الهزيل الذي نتمناه لأبنائنا.

إن من تمنى لهم أبوهم أن يكونوا (مقيمي الصلاة)، تمكنوا من المساهمة في تغيير العالم.

أما من يتمنى لهم آباؤهم أن يكونوا أطباء أو مهندسين ناجحين، فإن سقف عالمهم سينتهي عند ذلك، هذا إذا وصلوا إليه أصلًا.

***

فلنتنبه هنا أن إبراهيم لم يستثنِ نفسه مما يريده لأولاده.

لا، إنه معهم، اجعلني أنا مقيم الصلاة، واجعل أيضًا أحلامي فيهم لا يجب أن تنفصل عما أفعله –وما أريده لنفسي– إذا كنت أريدهم أن يكونوا (مقيمي الصلاة)، فأنا أيضًا يجب أن أكون كذلك.

إنه ذلك التطابق بين الفكر والسلوك الذي يسقط فيه الكثيرون، نريد من أبنائنا ما عجزنا –أو كسلنا أو تقاعسنا– عن أن نكونه. ويكون ذلك سببًا مفصليًّا في أن يخفق أولادنا في تحقيق ما نريده لهم، لأننا أخفقنا أصلًا في أن نكون مثالًا –ولو صغيرًا– مما نريده منهم.

أما إبراهيم فلا، لقد ابتدأ بنفسه، اجعلني أنا أولًا مقيم الصلاة، ومن ثم ذريتي، إنه يعي تداخل ذلك وترابطه، ارتباط السبب بالنتيجة. ولم

يمنعه «كبره» من أن يبدأ بنفسه. لم يقل «راحت علينا» و «فاتنا القطار» و «البركة في الأولاد».

ذلك ما سيجعل ذريتي مقيمين للصلاة. وذلك سيجعلهم لاحقًا، ولو على المدى غير المنظور مباشرة، مقيمين للمجتمع.

***

وسنتنبه هنا أيضًا، إلى أن سيدنا إبراهيم، بعدما دعا الله أن يجعله وذريته مقيمي الصلاة، سيدعوه أن يتقبل دعاءه.

كما لو أن إقامة الصلاة هنا هي أساس من شروط تقبل الدعاء.

فلنتذكر أنها ليست مجرد «صلاة»، هذه التي يريدها إبراهيم لنفسه –أو لذريته–، إنه لا يريد لهم أن «يصلوا» فحسب، فذلك أمر دون ما يريده بكثير.

إنه يريد لهم أن يكونوا «مقيمي الصلاة». إنه يريد للصلاة أن تقام فيهم، وبهم، وعبرهم، ومن خلالهم.

ليست تلك النقرات طبعًا، بل إقامة للصلاة بأقصى ما في ذلك من معانٍ.

***

ربما سيرد أحدهم على السؤال، بجواب واسع، مثل: تمام الصحة والعافية، وهذا صحيح، لكن الصحة لها أقسام، بعضها يمكن أن يكون مرئيًّا وظاهرًا للعيان، ترى الشخص فتدرك فورًا أنه «معتل»، وبعض أقسامها قد يحتاج إلى صورة شعاعية، وتحليلات مخبرية، للكشف عن العلة.

لكن أعمق ما في الصحة، سيكون أعمق من أن يشخص بمجرد النظر، أو حتى عبر أجهزة الأشعة. أحيانًا تكون **العلة في جوهر الإنسان،** وليس في عضو معين من أعضائه، تكون العلة أبعد من أن تقاس بجهاز مهما كان متطورًا، **لأنها تشمل «وجود» هذا الإنسان وكيانه ككل.**

«إقامة الصلاة» -بالمعنى الأشمل لكلمة الإقامة- **تشكل الضمانة والحصانة والمناعة، ضد العلة الأخطر التي يمكن أن تصيب وجود إنسان ما، التي هي العلة الأكثر انتشارًا -كما لو كانت وباءً- والأقل شهرة في الوقت ذاته.**

ما هو المرض إلا عطل يصيب «عضو» ما ليصيب وظيفته بخلل ما؟

ولكن ماذا عن وظيفة الإنسان ككل؟

هل يكون لكل عضو وظيفة، ولا يكون للإنسان ككل وظيفة؟ هل يكون الخلل الوظيفي مرضًا إذا أصاب غدة ما، أو عضلة ما، ولا يكون مرضًا إذا أصاب الإنسان ككل؟

هل يكون اعوجاج فقرة هنا، أو انزلاقها، مرضًا يستدعي التداخل، ولا يكون اختفاء العمود الفقري كله -أو انحرافه- مرضًا يستحق أن تكون العافية منه أول ما تتمنى لأولادك؟

وإقامة الصلاة هي ذلك العمود الفقري -**النفسي**- للشخصية، هي التي تمكن الفرد من أن يقوم بدوره، بوظيفته، إنها تلم كل ما يمكن أن يتناثر من فقراته، تمسك بزمامه، وتجعله متماسكًا.

لا يمكن من دون هذا العمود الفقري أن يقوم أي منا بوظيفته التي خُلق من أجلها. لا يمكنه أن يقوم أصلًا.

قد يكون ابنك طبيبًا ناجحًا، وقد يكون رجل أعمال لامعًا أو مهندسًا فائق النجاح.

كل ذلك جيد لكنه لن يصب في إطار وظيفته الأصلية، إذا كان عموده الفقري مكسورًا، أو غير موجود أصلًا.

وقبل كل شيء، لا أظن أنك تريد أن يكون لابنك الناجح عمود فقري غير متماسك أو غير مستقيم.

أم إن ذلك لن يهمك، ما دام ناجحًا وثريًّا؟

غريب في بلاد غريبة

قد يأخذك الطريق بعيدًا شيئًا فشيئًا، وترحل بك السفن في بحار الظلمات، لتصل بك إلى مرافئ بعيدة، ما تخيلت يومًا أنك ستطئها بقدميك، فإذا بك تحل بها، وتنزل بها، وتستوطنها.

وتقول لنفسك إنك ستعود، غدًا أو بعد غد، ستعود، لن تدق مسمارًا على جدار في الغربة، بل ستؤجل ذلك لتدقه في مرفئك الأصلي.

لكن مسمارًا بعد آخر سيدقك أنت ويشدك إلى تلك الأرض الجديدة. ويومًا بعد يوم ستجد أن جذورك ربما تكون نبتت هناك، وأن خيمتك التي نصبتها ذات يوم بأمل العودة، لم تعد خيمة بالضبط، بل صار لها جدران، وسقف، وصارت بيتًا كبر فيه أولادك.

ربما لا شيء سيلغي حنينك إلى بيتك الأول، ودربك الأول، وذلك المرفأ الأول الذي رحلت عنه. ربما لا شيء سيمحو في أعماقك دمعتك السرية التي تهبط من عينيك، ربما وأنت نائم، وتمسحها خلسة.

لن تستطيع أن تلغي حنينك لمسقط رأسك، ومسقط حرفك الأول، مسقط شهقتك الأولى، وحيث دق قلبك ونبض وعيك أول مرة.

ربما ستجف دمعتك السرِّية بالتدريج، ربما ستتقد وتموت في محجريك، ربما ستتعود على الأرض الأخرى، وذلك الهواء الآخر، ربما ستنبت لك جذور جديدة في تلك الأرض الجديدة.

لكن هاجسًا ما قد يعكر عليك هذا التعود، ويعكر على جذورك نموها.

هاجس ما سيذكرك دومًا، **أنك عندما تموت ستموت غريبًا، وسيحملك غرباء عنك، وستُدفن غريبًا، في بلاد غريبة.**

***

أنت محق في هذا الهاجس.

لكنه ليس الحق كله، إنه حق جزئي، متعلق بتفصيل صغير، تفصيل صغير يخصك كفرد، وُلد وارتبط عاطفيًّا بمكان ولادته ونشوئه، لكن هناك صورة أكبر وأوسع.

إنها صورة تخصك أنت أيضًا، صورة شخصية لك، لكنها لا ترتبط بمساحة محددة من الأرض قُدِّرَ أنك وُلدت فيها.

إنها لا ترتبط بأرض ما، بل ترتبط بالأرض مع أل التعريف.

بعبارة أخرى إنها ترتبط **بكوكب الأرض كله.**

والصورة تخصك أنت أيضًا، من قبل أن تكون «أنت».

***

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

إنها الأرض! الأرض بأسرها، كوكب الأرض كله، كان محلًّا لذلك التفويض الإلهي للنوع الإنساني بأسره، ممثلًا في أبينا آدم، أصالة عن نفسه، ووكالة عنا جميعًا.

كوكب الأرض، بكل قاراته، بكل براريه وصحاريه وسهوله، كلها، تقع ضمن مسؤوليتك، ضمن التفويض الإلهي الذي مُنح لك قبل أن تكون.

قد تولد في هذا الركن من العالم، أو تلك الزاوية، في قرية هنا، أو مدينة هناك، وقد تتعلق بذلك المكان، وتشعر بالانتماء إليه، وتتمنى لو أنك تبقى فيه.

لكن هذا أمر عابر، مجرد تفصيل صغير، والأمر الأهم والأكبر هو أن تنتمي إلى مهمتك الأصلية، الأصلية التي لم تقف يومًا عند حدود مسقط رأسك.

المهم أن تنتمي إلى تكليفك الأصلي في الأرض خليفة.

موقعك الجغرافي من هذا الأمر هو مجرد تفصيل.

المهم هو تنفيذه.

***

ويشبه الأمر من زوايا عديدة أن تكون موظفًا في مؤسسة كبيرة، في الطابق الرابع من طوابقها العشرين، أو الأربعين، تقضي سنين هناك، حتى تشعر بالانتماء إلى الجدران، وتنمو بينك وبين زملائك في الطابق صداقات وعلاقات حتى تشعر أنهم أفراد من عائلتك وربما أقرب.

ثم يأتيك أمرٌ أن تنتقل للطابق العشرين، لسبب ما، ربما لأن فاعليتك ستكون أفضل هناك، أو أنك ستتمكن من الإصلاح هناك بشكل أفضل، أو لأن الظروف ستكون مواتية أكثر هناك لتنمية فاعليتك، أو أي سبب آخر.

ستحزن طبعًا على جذورك في الطابع الرابع، وعلى صداقاتك وذكرياتك هناك، لكن ذلك لن يجعلك حتى تتلكأ في تنفيذ الأمر.

بعد كل شيء، إنها مؤسسة واحدة. وأنت موظف فيها بكل الأحوال. في الطابق الرابع، أو العشرين، أو الأربعين، أو في القبو، أو حتى في فرع آخر للمؤسسة، ولو وقع في مدينة أخرى، أو في قارة أخرى.

هكذا الأمر مع ذلك التوظيف الإلهي للنوع الإنساني. إنك تحمله معك أينما كنت، لا مفر من الحزن طبعًا. لكن لا مفر من تجاوز ذلك، لا مفر من أن تمضي لأداء وظيفتك دون أن يمنعك الحزن والحنين من ذلك.

لا وقت أصلًا للإكثار من ذلك.

***

نزلت هذه الآية، التي تذكر طبيعة التكليف الإنساني، وموقعه، في سورة البقرة، وهي أول ما نزل من القرآن الكريم في المدينة، بعد الهجرة.

لقد كان المهاجرون إذن قد تركوا منذ فترة وجيزة موقعهم الأول في مكة، التي وُلدوا وكبروا فيها، وأحبوها كما سيحب أي أحد منا مدينته ومرتع صباه وأحلامه.

لعل شيئًا من الحنين لمكة كان يساورهم ويعكر عليهم صفو عيشهم في المدينة.

تنزلت الآية تذكرهم، تذكر النوع الإنساني كله، أن «الأرض كلها» – وليست أي أرض بعينها– هي موضع استخلافهم.

هل نحتاج إلى أن نذكر أنهم قد وعوا درس الآية جيدًا، وأن عقودًا قليلة جدًّا ستفصلهم عن تحقيقهم لها، وأنهم سيتمكنون من نشر رسالتهم لأركان الأرض، كل الأرض، وليس مجرد بقعة ما من أرض، قُدِّر أنهم وُلدوا فيها؟

***

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: 56].

نعم، إنها الأرض، أرض الله، موقع التفويض والتكليف، وهي واسعة.

لأنها واسعة، وتحتاج إلى (تعبيد)، إلى أن تُعبَّد، لتؤدي إلى ما أراده الله، فلا وقت لتضيعه لكبير تعلق في جزء صغير منها.

إنها أرض الله الواسعة، وكلها موضع التكليف.

***

هل هي واسعة أكثر مما يجب يا ترى؟

هل هي (أكبر) من إمكانية النوع الإنساني، على الإصلاح، على الاستخلاف؟

لا، لا يمكن أن يكون ذلك، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ولما كان قد كلف (النفس الإنسانية) كلها بالأرض كلها، بوسعها، فهذا يعني منطقيًّا أن أرض الله الواسعة تدخل ضمن (وسع) الإمكانية الإنسانية.

أقصد الإمكانية الإنسانية الأصلية، وليس تلك التي قُزِّمت وهُمِّشَت وحُوِّلت إلى تفاصيل فردية صغيرة.

بل إن سعة الأرض ستبدو هنا عاملًا إيجابيًّا وميسرًا للاستخلاف. فإذا لم تستطع أن تنجز هنا، وحاولت مرارًا، فاذهب إلى زاوية أخرى من زوايا هذا العالم الواسع، فأرض الله واسعة، هي بسعتها داخلة ضمن التكلف الأصلي.

***

لا مفر من بعض الحزن، وبعض الحنين.

لا مفر من الالتفات أحيانًا إلى ذلك الماضي.

لكن لا مفر أيضًا من تجاوزه والمضي قدمًا، ما دمت تؤدي ما خُلقت من أجله.

ربما لا شيء سيمحي تمامًا ذلك الشعور الحاد كسكين، الذي سيراودك بين الحين والآخر، من أنك ستُدفن غريبًا، في بلاد غريبة.

لكن لا بأس، عندما تُدفن، وحتى لو كان الذين حملوك ودفنوك غرباء عنك، فإن الأرض وقتها ستحنو عليك، وستحتضنك وستمسح دمعتك بصمت ما دمت قد أديت دورك فيها.

لن تكون غريبًا عن تلك الأرض.

ولعلها ستهمس في أذنيك، لتخفف من غربتك.

لعلها ستقول لك: طوبى للغرباء.

ما داموا قد أدوا ما عليهم.

عالمٌ من دونه

"لا أستطيع أن أعيش من دونك". "لا يمكنني أن أتخيل حياتي من دون أن تكون فيها". "سأموت إن تركتِني".

عبارات كثيرة، بصيغ مختلفة، وكلها تدور حول معنى واحد، نسمعها قسرًا في الأفلام، في الأغاني، في المسلسلات، حتى صارت جزءًا من لازمة تقليدية كثيرة التكرار.

أكثر من ذلك، فإننا نستعمل شيئًا مقاربًا، ونسمعه، أحيانًا يقال ذلك مجاملة، كجزء من المبالغة في إظهار العواطف، وأحيانًا يقال استدراجًا، كجزء من لعبة جر الحبل إياها. ولكن على الرغم من ذلك كله، وعلى الرغم من أن الجملة ومثيلاتها استهلكت تمامًا واستنزفت كل مخزونها من الصدق والعفوية، فإننا قد نفكر في شيء مقارب، بصدق، وبلا نية للمجاملة.

أحيانًا نقصد بها شخصًا نحبه فعلًا، صار جزءًا من حياتنا كما صرنا جزءًا من حياته، ربما يكون شريكة درب في سراء الحياة وضرَّائها، وربما تكون أُمُّك التي كانت لك صدرًا حنونًا وسندًا قويًّا منذ أن وعيت ضعفك الإنساني، وربما يكون صديقًا أضاء بوجوده جزءًا من ظلمة الطريق، وربما يكون ابنًا تتمنى ألا تعيش لترى فقدانه.

مع أيٍّ من هؤلاء يمكن أن نفكر بطريقة: «لا أتخيل حياتي من دونك». يمكن أن نقولها ونحن نعنيها بحذافيرها، تؤمن تمامًا، في اللحظة التي نقولها على الأقل، أننا لا يمكن أن نواصل من دونهم، وعندما يحدث هذا الذي لا نريد أن نفكر في مجرد حدوثه، فإن العالم سيبدو كما لو أنه انهار فوقنا، وتستيقظ في اليوم التالي وأنت تأمل أن كل ذلك كان مجرد كابوس لم يمر في واقع حياتك.

لكن، تعرفون كيف تسير الأمور بعدها، الوقت كفيل بالتئام الجروح، أو على الأقل بتضميدها، وربما أسرع مما نظن، قد يكون الأمر أصعب مع فقدان الأبناء مثلًا، لكن عمومًا، تلك الحياة التي لا يمكن تخيلها ستصبح حقيقة. ولن يكون الأمر صعبًا جدًّا كما تصورنا يوم قلنا ما قلنا.

لكن ماذا لو لم يكن هذا الذي ستفقده إنسانًا من أقاربك وأحبابك؟

ماذا لو كان شيئًا آخرَ؟

***

ما الذي سيحدث لو أنك استيقظت ذات يوم لتجد أن الكهرباء قد انقطعت إلى الأبد، وأن كل مولدات الكهرباء –وكل مصادرها– في العالم بأسره قد توقفت عن العمل؟

سيتغير نمط حياتك بالتأكيد. ستصبح أشياء كثيرة بمنتهى الصعوبة، وستختفي أشياء من حياتك لتحل محلها أخرى، سيكون التعود على حياة أجدادك صعبًا جدًّا، لكنك ستتدبر أمورك، ستستمر الحياة.

الشيء نفسه سيكون بخصوص معظم موارد الطاقة التي نستعملها اليوم، إذا نضبت فجأة، فإن حياتنا ستتغير، نمط حياتنا سيتعرض

لتعديلات كثيرة، لكن الحياة على الأكثر ستستمر، بصعوبات ومشاق، ولكنها ستستمر.

***

سيكون الأمر أصعب بكثير إذا قلَّت نسبة الأوكسجين في الهواء، سيصيب ذلك الحياة نفسها، وليس نمطها المتغير، ستصبح كل شهقة إنجازًا يتشبث بالحياة. وكل زفير سيصير خطوة إلى إنهاء الحياة.

***

لكن ماذا لو استيقظت ذات يوم، لتجد العالم «دونه».

ماذا يحدث لو افترضت أنك تعيش في عالم آخر، عالم أخذ منه ركن من أركانه، أو من أركانك أنت.

ماذا سيحدث لو أنك استيقظت، ذات يوم، لتجد أن العالم قد صار فجأة بلا قرآن.

***

مثل خلاء أجرد مروع. سيبدو العالم بلا قرآن.

مثل صحراء جرداء بلا دليل ولا بوصلة، ولا نجمة في الليل.

سيبدو كما لو أن الربع الخالي صار يحتل أربعة أرباع العالم. كما لو أن الناس قد هجروه فجأة. أو أنهم لم يكونوا أصلًا.

فجأة ستنسحب الحياة، ستجد نفسك وحيدًا مثل طفل صغير تركته أمه على باب ميتم مهجور.

حتى اللغة ستنسحب، ستجد نفسك غير قادر على الحديث حتى مع نفسك.

***

أم أنه سيبدو محض عماء، مطلق فوضى، وزحامًا هائلًا لا تنتظمه منظومة ولا تحده حدود. قد تجد نفسك في وسط كتل هائلة من البشر، لكنهم لن يكونوا مثل ما تعودت عليه من البشر، سيكونون بشرًا غير البشر، ربما سيكونون أقرب إلى الذئاب، الذئاب البشرية المتوحدة.

ستكون أنت أيضًا مثل ذئب بشري وحيد، ذئب مثل كل الذئاب الأخرى، في قطيع الذئاب، تشعر أن ذلك كله خطأ، ولكنك لن تقوى على تغيير شيء، ذلك أنك مجرد ذئب آخر.

هل سيبقى هناك لغة في تلك الفوضى؟ سيكون لكل فرد لغة خاصة به، مثل قفص يحيط به، ويعجز عن التواصل مع الآخرين بها، بل ربما يعجز حتى عن التواصل مع نفسه.

أم أنه سيكون مثل مجتمع تسود فيه شريعة الغاب؟ هل ستقول إن ذلك كان دومًا الحال بطريقة أو بأخرى؟ ربما. لكن ذلك سيكون أكثر وأوضح، عندما يكون العالم بلا قرآن، ستجد نفسك مثل سمكة سردين صغيرة تلتهمها سمكة أكبر منها قليلًا وقبل أن تفرغ ستجد نفسها في بطن سمكة أكبر.

لعل ذلك سيكون هو السائد بلا استدراك، بلا حتى محاولة للتغيير، إنه الأمر الواقع، بلا مقاومة إذن. إنها شريعة الغاب كمصدر أساسي ووحيد للتشريع، ليس ثمة أمل لسمكة السردين الصغيرة، حتى لو كانت بشرًا.

***

أم أن العالم سيكون مثل شبكة طرق متداخلة وملتوية ومتشعبة، كل طريق فيها يؤدي إلى مفترقات طرق. وكل مفترق إلى المزيد، وكل مزيد يقود إلى المزيد. وكلها متشابهة، وكلها بلا إشارات دالة، وأنت بلا

خريطة. العالم كله بلا خرائط. ليس سوى طرق داخل طرق ومفترقات طرق. لست واثقًا إن كنت تسير إلى الأمام أم إلى الخلف. لست واثقًا حتى إن كنت تدور في حلقة طرق مفرغة أم أن الطرق متشابهة. لست واثقًا إن كان البشر الذين يسيرون معك يسيرون في الطريق الصحيح أم عكس السير.

لا شيء سوى الطرق، بلا نهاية.

***

أم لعله سيكون مثل صحراء من ملح بلا أرض واعدة بشيء، بلا شجرة من بعيد، بلا غيمة، بلا أفق، بلا ظل، بلا حتى سراب، بلا حتى أمل بسراب، لا شيء سوى الملح القاحل اليائس، والعطش الواقف في حلقك.

لعله سيكون عالمًا مليئًا بالضباب. عالمًا مكونًا من الضباب. لا شيء فيه سوى الضباب. لن ترى شيئًا سوى الضباب. لن تستطيع أن تتأكد حتى من أنك موجود. لن تسمع سوى أصوات مبهمة وبهيمية ولن تكون واثقًا إن كانت صادرة منك أو من ذئب بشري آخر، أو من الضباب نفسه.

لعل العالم سيكف عن أن يكون مدورًا، لعله سيتسطح فجأة فنسقط جميعًا في فراغ مطلق مروع، ونظل نسقط ونسقط حتى ما سيبدو أنه أبد الآبدين.

أم لعله سيكف عن كونه مدورًا، ليصير مدببًا حادًّا، جارحًا، كل خطوة فيه ستكون سيرًا على أشواك حادة مسننة؟

***

ولعل الحياة ستكون وقتها احتضارًا طويلًا بين شهقتين: شهقة الولادة وشهقة الاحتضار. لعلك ستكون مريضًا بمرض مزمن، لكن فجأة

اختفى أطباؤك وكل وصفاتهم وكل الصيدليات، فجأة صاروا يقولون للكل إن مرضك هذا غير موجود في معاجم الطب، ولا علاج له معروف، وكنت تأخذ حبتك بانتظام قبل يوم واحد من هذا، وستشعر أن مرضك المزمن يضيق عليك الخناق، وأن ضرباته في رأسك صارت مسموعة لمن حولك.

وأنك تختنق. تختنق. تختنق.

لعلها ستكون مثل أن تكون مريضًا بالصرع وقد نفدت أدويته وعقاقيره، يقضي كل لحظة في انتظار نوبة الصرع القادمة التي ستقضي عليه، ولكن تلك القاضية لا تأتيه، بل يظل مصروعًا لنوبات تزيده تخبطًا وغرقًا وإحراجًا.

***

ربما العالم بلا قرآن، هو أشبه بعالم ليس فيه أي خيار: عالم ليس فيه سوى طريق واحد أنت مجبر على السير فيه. هناك نمط حياة واحد، هناك ثقافة واحدة، هناك قيم واحدة، هناك فرعون واحد علينا أن نقسر أعيننا على أن ترى ما يراه فقط.

دون قرآن لن نستطيع أن نقول إن هناك إلهًا عادلًا في هذا العالم الظالم، وإنه أعطانا الإرادة والمسؤولية والقدرة لنغير هذا الظلم، دون قرآن لن يكون هناك حق أو باطل، خير أو شر، ظلمات أو نور، سيتساوى كل شيء، وستكون علامة التساوي هي العلاقة التي تربط بين كل المتناقضات.

دون القرآن لن يكون هناك مرجع حق، بل سيكون هناك أمر واقع، فرض شرعيته بأسنانه وأنيابه وأظفاره، ويفرض شرعيته بقوته،

صحيح أن العالم يبدو اليوم قريبًا من هذا، لكننا، مع وجود القرآن، يمكننا أن نحلم، أن نعترض، أن نقول: إن الله لا يرضى بهذا.

لكن عالمًا بلا قرآن سيكون موحشًا لهذه الدرجة: لدرجة أن حتى الحلم -حتى الأمل- بعالم أفضل، سيكون محرمًا عليك.

عالم من دون قرآن سيكون هكذا، مثل عالم فقد رشده ولم يعد ثمة أمل في أن يعود إلى صوابه.

***

أكبر مشكلة في ذلك، هي أن الوقت لن يكون كفيلًا بحلِّ أي شيء، كما سيفعل مع تخفيف حدة الافتقادات الأخرى.

مع الوقت، ستتراكم المشكلات وتتفاقم، وكل دقيقة ولحظة ستكون اقترابًا من دقيقة الصفر، حيث ينفجر العالم متخومًا ومضغوطًا بأزمات عالم ليس فيه قرآن.

سيكون عامل الوقت، على العكس من كل الأمثلة الأخرى: عامل تأزيم. وليس عالم تخفيف.

وإذا كنت لم تعِ معنى أن تكون في عالم بلا قرآن في الوهلة الأولى، فإنك ستعني كم هو مروع ذلك لاحقًا، فالوقت سيكشف لك معنى ذلك لاحقًا.

***

إذا تصورت أنك ستستيقظ في عالم بلا قرآن، دون أن يحدث ذلك وجعًا في قلبك، دون أن يحدث ذلك ثقبًا في قلبك، فذلك يعني على الأكثر **أن القرآن بالنسبة إليك لا يعدو أن يكون كتابًا على الرف، أو حرزًا**

في السيارة، أو كتابًا تتبرك به ليزيد من رزقك وليحميك من شر حاسد إذا حسد.

سيكون من السهل عليك العيش في عالم بلا قرآن، إذا كان القرآن بالنسبة إليك ليسَ أكثر من هذا.

بل دعني أزيد على هذا أنك تعيش في عالم كهذا فعلًا الآن، ما دمت قد وضعت القرآن على الرف، بعيدًا عن فاعليته في حياتك وفي عالمك.

إنك تعيش في عالم مرعب فعلًا. كل ما في الأمر أنك لم تعد تدرك ذلك.

كل ما في الأمر أنك قررت حل مشكلاتك بأن تتعايش مع ذلك.

تعرف شيئًا؟ التعايش مع واقع كهذا قد لا يكون أنسب الحلول.

التعايش مع واقع كهذا هو الانتحار بعينه.

***

قصة حب

يحدثوننا عن أعراض الحب، فإذا بها سهر، وأرق، وقلق، وسوء في التغذية، وحرمان على حافة الاكتئاب، وشوق مشبوب على حافة الجنون، وتوق محموم إلى إرضاء شخص واحد، وأحيانًا على الأقل لفت انتباهه.

الحب، في صورته المرسومة هذه، يشبه قالبًا على الكل أن يلجوه ما إن يبلغوا سن البلوغ، بنين وبنات، قالب توزعه الأغاني والقصص والأفلام، كما لو كان حتمًا مقضيًّا ومن بداهات البلوغ، حتى إذا لم (يشعر) المراهق أو المراهقة بالأعراض إياها، أحس بالهلع، كما لو أن بلوغه لم يكتمل، وصار (يستشعر) كل تلك الأعراض، أو يتخيل أنه يشعر بها، فيتوهم الحب، وينساق في الدور المرسوم حتى يعيشه حقًّا، فإذا به يسهر حيران، تأكله الغيرة وهو يصطلي بنار الصدود.

وهكذا، يبدو الحب -في مظاهره المتعددة- بين أن يكون جبهة استنزاف، عندما يكون من طرف واحد، وبين أن يكون لعبة (شد حبل) عندما يكون من طرفين.

وفي الحالتين، فإنه سيكون استنزافًا لطاقات وعواطف ووعي الإنسان، في مرحلة من أهم مراحل حياته قدرة وقوة.

سيكون هذا الحب، بهذه الصورة على الأقل، حادثًا مؤسفًا مهما حاولنا تزيينه وتزويقه.

الحب، بهذه الطريقة المستنزفة السلبية، هو حادث مؤسف، حتى وإن انتهى ما يسمونه نهاية سعيدة، بالزفاف السعيد.

***

لكن هذا ليس هو الحب حقًّا.

إنه ما يروجونه عنه فحسب.

إنه تلك الصورة السلبية التي عممتها وسائل الإعلام حتى انتشرت وسادت كالوباء.

لكن هناك حبًّا من نوع آخر، حبًّا آخر قد لا يتغنى به المطربون في ثقافة الاستهلاك التي نعيشها، لكن ذلك لا ينقص من قدره شيئًا.

إنه حب لا يستنزف طاقاتك، ولا يسفح مشاعرك، ولا يجعل حياتك تكاد تضيع هباءً، كما يحدث مع ذلك الحب المعتاد.

إنه حب آخر، لا يقل قوة، بل يزيد أضعافًا، لكنه **بالمقابل يقويك، يزيدك قوة**.

وبينما تميز مشاهير ذلك الحب العادي بأنهم وصلوا إلى الانتحار، أي إلى الموت، من فرط حبهم.

فإن الحب الآخر الذي نتحدث عنه، يدفع بالمحبين إلى قمة الحياة، إلى أعلى ما يمكن الوصول منها.

ليس من (موت حبًّا) بهذا الحب، بل هناك الحياة حبًّا، وكلما زاد الحب، وتعمق، تعمقت الحياة التي يصنعها هذا الحب، ليس من موت حبًّا، بل هناك (حياة، حبًّا).

***

عن أي حب أتحدث؟

عن ذلك الذي يضيء الدرب، وينير القلب، لا يأخذك إلى الأرق والسهر والحرمان، لا يجعلك تهزل وقد حُرمت من النوم وفقدت شهيتك للطعام. لا.

بل على العكس، يمدك بطاقة، كما لو كان يزيد من وجباتك الغذائية، بل كما لو أنه هو نفسه وجبة تمدُّك بكل ما هو مقوي ومفيد، كما لو أنه (حقنة) مغذيات، تعطي القوة وتشد من أزر عضلات روحك وتضاريس أعماقك، حتى لو لم يتغير مظهرك الخارجي كثيرًا.

إنه حب قد لا يُرى بالعين المجردة، لكنه انتقال إلى أفق أعلى، مثل الأشعة فوق البنفسجية لا تُرى. لكنها تشفي من أمراض، وقد تقتل أيضًا.

***

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: 54].

هذا هو.

هذا هو الحب الآخر، الذي لا يستنزف حياتك مثل ثقب أسود، بل يملؤها ويجعل لها معنى: معنى إيجابي، بناء.

فلنتأمل فيه. كلمة كلمة.

***

أول ما فيه، ربما أجمل ما فيه، أنه حب متبادل، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: 54]. ليس حبًّا من طرف واحد أبدًا. لا يمكن أن يكون كذلك، فالحب الحقيق الإيجابي لا يكون من طرف واحد أبدًا. بل يكون دومًا

متبادلًا، مثل معادلة من طرفين، وجود طرف مرتبط حتمًا بوجود الطرف الآخر.

وهكذا، فإنه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، حب متبادل بين الله -عز وجل- وبين عباده. من بدأ ذلك الحب؟ من كان صاحب الشرارة الأولى؟

كما جاء في نص الآية المضيئة: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. إنه هو، عز وجل، من بدأ تلك العلاقة. هو، برحمته، التي كتبها على نفسه، وما كتب على نفسه سواها، وبفضله الذي وسع العالمين، من بدأ تلك العلاقة، ووجَّه الحب أولًا لعباده.

ثم تلقفوا، هم، تلك المشاعر، فجعلوها شعلةً، وبادلوا الحب حبًّا، كما يجب أن يكون.

إنه حب متبادل، بين طرفين لا يتساويان.

لكن يظل هذا (التبادل) صفة جوهرية، لهذا الحب الآخر، الحب الذي يبني، ولا يهدم، يمد ولا يستنزف.

***

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ثنائية الذل والعزة التي تميز هؤلاء المحبين وحبهم الآخر، تدل على عدم وجود (الغيرة) بشكلها السائد في علاقات الحب العادي.

ففي الحب العادي يستهلك الإنسان مشاعره (غيرة) من محب آخر، يشكل خطرًا محتملًا للفوز بمشاعر الحبيب.

ويكون هذا -في أحيان كثيرة- حبًّا للتملك، ويصير الحبيب أو الحبيبة طرفًا يراد امتلاكه، واحتكار امتلاكه أيضًا، مما يوتر العلاقة ويجعلها جبهة استنزاف إضافية.

لكن مع الحب الآخر، الأمر منفي تمامًا، فأنت لا تشعر بالغيرة من المحبين أمثالك، على العكس، ستشعر بالحب تجاههم أيضًا، كما لو أنكم تشتركون في (سرٍّ) أثير، كما لو أن محبوبكم، جل وعلا عن أي تشبيه، مشاع من ناحية العواطف، وحبه يتسع للجميع، بلا نزاع أو تزاحم.

وعلى العكس من ذلك، فإن الغيرة توجَّه ضد أولئك الذين لا يبادلونه المشاعر، أولئك الذين لا يحبونه. (الغيرة) هنا تحاول جذبهم، تحاول جعلهم ينضمون إلى معسكر العشاق.

ولأنك عنصر جذب، فإن (العزة) هي مظهرك الأول، إنك لست واقعًا في الحب، كما يحدث في ذلك الحب العادي، بل أنت واقف بانتصاب وشموخ في علاقة حب هي الأهم والأنضج، علاقة حب تجعلك لا عزيز قومك فقط، بل (عزيز) الإنسانية كلها.

***

و﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ولأن جهودهم ليست مستنزفة يمينًا وشمالًا في معركة شدِّ الحبل التي يسمونها حبًّا، وفي تفاصيل السهر والأرق والوعود والخيبات والخيانات فإن (طاقاتهم) تظل جاهزة لأمر آخر، أكثر جوهرية وأهمية من كل ذاك.

بل إن حبهم هنا هو المحرك الأساس الذي يجعل جهودهم تصير جهادًا في سبيله عز وجل.

والجهاد هنا هو كل بذل جهد في سبيله، لا يقتصر الأمر على شكل واحد من أشكال الجهد، بل الجهاد الحقيقي دومًا يشكل كل ألوان الطيف.

إنه قد يكون في بذل جهد في سبيل زرع بذرة ذلك الحب الآخر في جيل آخر، قادم لا محالة، ليحمل تلك الشعلة.

قد يكون في تربيتك لأبنائهم، لجعلهم صالحين حقًّا، جاهزين لإصلاح العالم.

قد يكون في نظرية تبتكرها، في اختراع، في حجر تضعه، في بناء تشيده، أو شيده غيرك وتعليه أنت.

قد يكون في كلمة حق في وقت عزَّت فيه كلمة الحق، أو حتى في إماطة أذى، في مجتمع اعتاد إلقاء الأذى.

لن يلغي ذلك طبعًا من وجود الشكل المعتاد من الجهاد، ضمن ضوابط وحدود قرآنية طبعًا.

لكن فلنتذكر أن ذلك الجهاد يعتمد على ذلك المحرك، على الحب المتبادل الذي يستثمر الجهد الإنساني، ويصبه في ملحمة جهاد.

***

كل قصص الحب التي عشتها والتي لم تعشها، كل قصص الحب التي تخيلتها ونصبت نفسك بطلًا فيها، كل قصص الحب التي ألهبت خيالك ذات يوم، كلها، لو أنها تحققت، حتى لو صارت كما طلبت في خيالك، ما كنت ستصبح مثل هذا الحب الآخر.

حتى لو نجا ذلك الحب من الخيانة، من الوعود المكسورة، من الخيبة، من الغدر والهجر وكل حلقات مسلسل شد الحبل إياه، فهل سينجو بريقه من أن يخبو؟ هل سينجو من قدر الانطفاء؟ من الملل، من رتابة التعود ودوامة التفاصيل الصغيرة.

وحده ذلك الحب الآخر، لا يزيده الزمن إلا قوة. وحدها (قصة حب) من ذلك الحب الآخر يمكن لها أن تصمد، بل أن تزداد متانة وتوهجًا ودعمًا، لا تثلمه قصة هجر أو خيانة.

وحدها قصة الحب تلك يمكن لها أن تحتوي قصة حياتك، وتجعل لها معنى، ومغزى، وهدفًا.

بين كل قصص الحب، هي وحدها، تستحق أن تسمى (قصة حب).

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

من التراب إلى الضوء

من التراب إلى التراب، تختصر أحيانًا حكاية النوع البشري، نشأ من تراب، وإلى التراب، حتمًا سيعود.

ربما تكون محبطة قليلًا، لكنها تهون علينا الأمر. ما دام كل الناس سيمضون إلى التراب، فإن وصلنا إليه، سيكون أهون. ثم إنها الحقيقة، والهروب منها غير مجدٍ. مهما كانت مؤلمة، لذلك فالتعايش معها أفضل، وأقل استنزافًا للطاقات.

***

لكن هذا الاختصار قد يكون مخلًّا بعض الأحيان.

فصحيح أننا من التراب وإلى التراب، وصحيح أن التراب الذي ننطلق منه تراب واحد، إلا أن نقطة النهاية مختلفة حتمًا، مختلفة جدًّا بين واحد وآخر، وإن بدا للوهلة الأولى أنه مجرد تراب، لكن لا توجد قطرة تراب تشبه أخرى حتمًا، حتى لو بدا أنها متطابقة.

***

الرحلة ما بين التراب إلى التراب، هي التي تحدد نوع التراب الذي سننتهي إليه.

وهي رحلة ترابية أيضًا بطريقة ما.

تكون فيها ترابًا أيضًا، حتى وإن ارتدينا أفخر الثياب وتعطرنا بأغلى العطور.

إنه التراب أيضًا، بين الترابين.

***

الإنسان مخلوق ترابي بطبعه إذن، تبدأ رحلته بالتراب، وتنتهي بالتراب، وبين النقطتين، في قلب الرحلة، يكون ترابًا أيضًا.

***

بعض البشر يختارون أن يكونوا ترابًا لا زرع فيه. ترابًا لم تُستغل إمكاناته، فلم ينمُ فيه زرع، ولم يحتضن بذرة، ولم تنمُ فيه الجذور.

إنه ليس ترابًا بلا إمكانات، بل هو تراب هُدرت إمكاناته، إنه مخلوق ترابي غير ذي زرع، ترابه قد لا يفتقر الخصوبة، لكنه تُرِك وأُهمل ولم تختبر إمكاناته.

هل هناك شيء كهذا.

نعم، هناك. الأرض التي تُترك بلا زراعة، الأرض الخراب المهملة، قد تكون خصبة، وقد تمتلك كل إمكانات الإنتاج والإثمار، لكنها تُترك، تُهمل، لا تُجرب.

فتكون أرضًا بورًا.

***

ليست الأرض وحدها يمكن أن تكون بورًا.

فالإنسان، بما أنه مخلوق ترابي، ومن التراب إلى التراب، ويمكن أن يكون كذلك.

كيف.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: 12].

إنهم القوم البور.

القوم الذين اختاروا أن يكونوا بورًا. ليس لأنهم بلا إمكانات، فالأرض البوار ليست أرضًا غير صالحة للزراعة، بل هي أرض لم تُستغل أصلًا.

إنهم أولئك الذين ظنوا ظن السوء بأنفسهم، وظنوا أن ليس بإمكانهم الفعل، ولا التغيير، ولا الإصلاح، وظنوا أيضًا أن لا أحد على الإطلاق سيتمكن من ذلك، ففضلوا، بدلًا من المحاولة، الركون إلى اللاشيء.

أولئك المخلفون الذين تركوا الذهاب مع الرسول -عليه الصلاة والسلام- إلى الفتح، أولئك بالضبط هم من ينطبق عليهم وصف «البور»، لم ينقصهم -كبنية- شيء عن أولئك الذين ذهبوا مع الرسول، لكن نقصهم الإيمان بأن شيئًا ما يمكن أن يخرج منهم، نقصهم إيمانهم بجدوى فعل أي شيء، نقصهم إيمانهم بأن الحرب ستجدي. وأن الزرع سيجدي، وأن كل ذلك سيؤدي إلى حصاد ما.

كانوا قومًا بورًا: لم يؤمنوا بأنفسهم، ولا بإمكاناتهم، وتركوا أنفسهم أرضًا بورًا، خرابًا مهملًا.

لقد تخلفوا عن ذلك الركب الذي انطلق ليقوم بمهمة إصلاح العالم، واستحقوا لقب المخلفين عن جدارة. القوم البور.

كلنا ترابٌ طبعًا، ومن التراب إلى التراب أيضًا. لكن هؤلاء بالذات اختاروا أن يكونوا بين الترابين، ترابًا بورًا.

***

لكن ليس كل التراب يكون مهملًا، بورًا، وكذلك ليس كل البشر يرضون أن يكونوا صفرًا على الشمال، كمًّا مهملًا.

إنهم يتعايشون مع حقيقة أنهم تراب، لكنهم يصرُّون على أن يكونوا ترابًا منتجًا، يستخلصون منه كل طاقاته، وأعظم إمكاناتهم، كل ذرة فيه تصير منتجة، فلا يكون مجرد تراب، بل يصير ترابًا مضيئًا، كل ذرة فيه تتدفق ضوءًا، في الرحلة من التراب إلى التراب.

***

ليسوا ملائكة، بل هم بشر من تراب، لكنه تراب لم يُهمل، بل تفعَّل ليكون ما خُلِقَ لأجله، احتوى الماء، واحتضن البذرة، وتشقق مرة بعد مرة ليجعلها تتنفس، ليدخل الهواء بين مساماته، صار كالحاضنة من أجل أن تنمو تلك البذرة، وتخرج برأسها، وقد صارت ساقًا، من بين مساماته.

***

لا. ليسوا ملائكة، لكنهم بشرٌ اختاروا أن يكونوا ما خُلقوا لأجله، أن يكونوا فاعلين، أن يستغلوا كل ما أودعه الله في أجسادهم. وإذا كان أولئك القوم البور قد اختاروا أن يتخلفوا عن الركب، أن يكونوا من المخلفين، فإن القوم الآخرين اختاروا أن يسيروا مع الركب، أن يكونوا هم الركب.

قومٌ اختاروا أن يكونوا المخلفين في الأرض.

هناك أحرف مشتركة بين الاثنين، وهناك فرق يُحسب بمقدار السنين الضوئية بينهما.

***

والتوصيف القرآني لهؤلاء، الذين ساروا في الركب، سيكون مضادًا لكل ما ذكرناه من «القوم البور».

سيكون توصيفًا في السياق نفسه، سياق الزرع والنماء.

***

في السورة ذاتها، سورة الفتح، وعلى مسافة آيات «مضيئة» سيأتي وصف مضاد، ومضيء ومختلف.

وصف لا يكتفي بكونه يحمل إمكانات الخصب والإنتاج، بل يفعِّلها لينتج، ليحول الإمكانية إلى حقيقة واقعية، لتصير البذرة ثمرة ناضجة.

إنها الآية التي تحكي عن ذلك الركب الآخر، القوم غير البور. عن ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: 29].

﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾ [الفتح: 29].

إنه الزرع مجددًا.

هناك كان البوار، الخراب رغم إمكانية الخصب، وهناك الاستثمار الأقصى، ذلك الزرع الذي أخرج شطأه، حتى إنه صار يعجب الزراع من استثنائية إثماره، ليس ذلك صدفة.

إنها خيار مطروح أمامنا، أمام القوم البور، تمضي حياتهم كتراب لم يُحرث ولم ينتج شيئًا، أو الخيار الآخر.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: 29].

أولئك الذين مروا من التراب ومضوا إلى التراب، وكانوا ترابًا أيضًا، لكنه تراب مضيء، تراب أضاء الدرب للآخرين، كانوا ثمارًا مضيئة كالقناديل.

وأضاؤوا الدرب، إلى تلك الحضارة الأخرى.

***

الذين معه. الذين معه. الذين معه.

الباب مفتوح لنا، لنكون معه، بل الأفق مفتوح لنا، لتلك المعية الشريفة. إنه باب يتحدى حواجز الزمان والمكان المزعومة، لنتواصل معه، عبر الضوء الذي تركه لنا، نتتبعه ونقتفي خطاه، ونكون معه.

وعلى مفترق الطريق المؤدي إليه، هناك خيار الخطوة الأولى.

السؤال هو: أي نوع من التراب، تريد أن تكون أنت؟!

وداعًا بونابرت

قالوا لنا ضمن ما قالوا: إن عصر النهضة في منطقتنا بدأ يوم حدث ذلك الاحتكاك بيننا وبين حملة عسكرية قادها نابليون بونابرت وجاءت من خلف البحار.

قالوا أيضًا: إن عصر التنوير بدأ يوم التفتنا غربًا، واقتنع بعضنا أن الشمس تشرق من هناك.

ثم قالوا دون أن يقولوا صراحة: إن لا نور إلا ذاك الذي يأتي منهم، من مولدهم الكهربائي، ومن أسلاك توصيلهم، ومن مقاييس قراءتهم.

قالوا لنا: إن عصر التنوير بدأ قبل قرنين فقط، وإنه بدأ مع حملة نابليون بونابرت وخيوله ومدافعه، ورغم أن ذلك ربما لم يكن في ذهنه، فإنهم قالوا إنه جاء معه بمشاعل الأنوار والتنوير.

خدعونا وقالوا أشياء كثيرة، وكنا في حالة صدمة فصدقنا ما قالوه.

صدقه بعضنا، حتى أكثر مما صدقوه هم.

***

لكن...

ليس كل ما يضيء ينير.

فالنور أعمق من مجرد ضوء.

إنه قد يتضمنه، بل هو يتضمنه، لكنه يحتوي على بعد أعمق، بعد آخر لا يستطيع الضوء أن يختزله.

النار قد تضيء، قد تضيء الدرب المظلم. لكن النور هو أن تشق طريقك للوصول إلى الطريق الصواب.

المصباح الساطع قد يضيء، لكنه إذا كان في يد لص جاء ليقتحم بيتك وحرمته، لن يكون منيرًا.

الأبجدية قد تضيء، لكنها لن تنير إلا إذا تشكلت أحرفها لتصيغ معاولَ تشق الطريق إلى عالم آخر، عالم أفضل يجب أن يكون.

والمطابع لن تضيء إلا إذا نضدت حروفًا تساهم في ذلك، حروفًا تغير من الأوراق لتصير تارة فراشات في حقول الضوء، وتارة يعاسيب مضيئة تحمل النور إلى الظلمة، وتارة تصير هدهدًا يدلُّ على النور، أو نسرًا يحلق إلى القمة.

والأهم من هذا كله، أن تساهم في تشكيل الإنسان الذي يختصر كل هذه الأطوار.

***

لكن إذا كانت المطبعة تدرب الناس على قبول واقعهم المظلم أو تروضهم من أجل الخنوع لمستعمر جديد، وتسكن في العقول لتجعلها تتخذ القرار الخطأ، والطريق الخطأ، فإن هذه المطبعة لن تكون جزءًا من النور، بل ستكون محض أداة يستخدمها الظلام.

***

ولقد جاء مع تلك الحملة أدوات لا يمكن إنكار أهميتها وأثرها الكبير في كل ما لحق من أحداث.

جاء معها ما كان يمكن أن يكون جزءًا من النور. مثل المطبعة، وعلماء الآثار، وعلوم أخرى.

لكن لأن هذا كله محايدٌ في طبيعته، ويعتمد على طريقة الاستخدام، بين استثمار إيجابي لصالح النور، وآخر يمكن أن يُستخدم من قبل الظلمات.

وكان علم الآثار مجيرًا لصالح تلك الحملة، من أجل فك شفرة التاريخ، وأخذه أسيرًا هو الآخر، مقيدًا بقيود العلم الحديث.

وكان البارود، الممثل الرسمي للعلوم الطبيعية آنذاك، رمزًا معبرًا ومختصرًا لطريقة استخدام تلك الأدوات التي جاءت مع الحملة الفرنسية.

***

ثمة أسطورة رائجة، لم تصح ولم تحدث، لكن لها دلالاتها.

قيل إن جنود نابليون قائد الحملة الفرنسية عندما التقوا مع أنف التاريخ الشاخص، مجسدًا في أبي الهول، أبوا إلا أن يدكوه بمدافعهم، كما لو أنهم يريدون أن يمحوا كل تاريخ سوى تاريخهم هم.

تقول الحكاية التي لم تحدث حقًّا إنهم استخدموا هدفًا للتصويب.

والحكاية لم تحدث حقيقة، لكن معناها حدث بالفعل.

إذا كانت بعض الأشياء يمكن أن تُدك بالمدافع، هناك أشياء ستظل تستعصي على ذلك.

النور مثلًا، لا يمكن أن يُدك بالمدافع.

***

للظلمة أوجه مختلفة، بعضها يكون دامس الحلكة، وأخرى تكون مضيئة بضوء كالظلام.

وقد كنا وقتها، يوم رست السفن، غارقين في ظلمة دامسة الحلكة، لذلك فقد كان لا بد أن نصدق ولو مرحليًّا أنه كان عصر تنوير ونهضة.

لكن هناك وجهًا آخر من الحكاية، كما مع كل شيء.

نعم كان هناك نور قد تسرب من كل ذلك.

لكنه لم يكن النور القادم من السفن بالضرورة.

بل كان نور المواجهة، مواجهة الحقيقة، حقيقة تخلفنا وبقائنا في عصر آخر، حقيقة أنهم سبقونا وتقدموا بينما بقينا ننتظر على المرافئ القديمة.

المواجهة صعبة وحادة ومؤلمة، مواجهة الواقع الذي كنا ننام فيه دون أن نعرف ما يحدث على الجانب الآخر من البحر.

ورغم ألم المكاشفة وصعوبة المواجهة، فإن ثمة نورًا يمكن أن ينبثق من ذلك.

إذا كان هذا هو المقصود، فنعم، عصر التنوير يبدأ من المواجهة، من الاستجابة ورد الفعل للتحدي.

****

هناك ضوء لا يدل على طريق، وإذا دلَّ على شيء فإنما يدل على الطريق الخطأ.

قد يكون ضوءًا ساطعًا باهرًا، يأخذ بالألباب، ويخطف الأبصار ويلفت الرؤوس.

لكنه لا ينير الدرب حقًّا.

وكذلك هو الضوء الذي يأتي مع الغزاة.

لا ينير، يبهر فقط.

وعندما يبهر، فهو لا يجعلك ترى بوضوح.

***

ما هو هذا الضوء الذي لا ينير؟ وكيف يمكن أن يبهر، ولكن لا ينير؟

ذلك الضوء الذي جاء به ذلك العصر، مع مدافع نابليون، كان كالبرق، يكاد أن يذهب بالأبصار، وهو مضيء فعلًا، لكنه كالبرق أيضًا، كلما أضاء لهم مشوا فيه، حتى لو إلى الطريق الخطأ.

إنه يخطف الأبصار، ويهذب بها، يحتكرها لصالحه، يقيدها، يأسرها ويأخذها معه في سفنه لتعمل عنده سخرةً دائمًا.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: 43].

من شدته، يكاد يذهب بها، ولكن ماذا سينفع ضوء يذهب بالأبصار؟ لا شيء سوى الإبهار المؤقت، لا شيء سوى السطوع الزائل، لكن لا شيء يجعل الطريق أكثر وضوحًا، لا شيء يجعل البصر أكثر قدرة على سبر الطريق، على المضي فيه.

إنه ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: 2].

مرة بهذا الاتجاه، ومرة بذاك، مرة بخطوة إلى الأمام وعشر إلى الخلف، مرة كدوران مستديم في حلقة مفرغة، كثور يدور في ساقية.

إنه البرق، يضيء حتمًا، يبهر، يأخذ بالأبصار، يخطفها، يذهب بها.

لكنه ليس (نورًا)، إنه لا يحتوي على تلك الأبعاد العميقة التي تجعله نورًا.

***

إنه ضوء باهر فعلًا، الضوء الذي جاء مع بونابرت، لا جدال في ذلك، لكن ضوءه كالبرق، يذهب بالأبصار، يختطفها، يجعلها أسيرة لذلك

الانبهار دون أن ينير لها الدرب، يجعلها تمشي لثوانٍ، فيكون سيرها تخبطًا كمن يتخبطه الجنُّ.

أليس هذا هو ما حدث معنا، باختصار شديد، في القرنين المنصرمين. **انبهار، أسر، تخبط، ودوران في حلقة مفرغة، مثل الثيران في ساقية البوار.**

***

النور الحقيقي، لا شرقي، ولا غربي. لأن الجهات لا تحده، إنه مثل الكوكب الشاهق الارتفاع، الحديث عن اتجاهه، لا معنى له، لأنه فوق كل اتجاهاتنا الأرضية.

النور الحقيقي، لا يحتاج إلى النار ليضيء، فالنار تحرق أحيانًا، والنار تقتل أحيانًا، والنور الحقيقي لا يفعل ذلك إلا كاضطرار وبضوابط.

النور الحقيقي مثل شجرة مباركة مثمرة، عمرها ألف سنة وتظل تثمر، وتمد بالظل، تظل جذورها راسخة، ويظل فرعها عاليًا شامخًا سامقًا.

النور الحقيقي لا يختص بقارة معينة، أو دولة معينة، أو إقليم معين. إنه نور السماوات والأرض.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: 35].

***

ذلك النور، لا شرقي، ولا غربي، بل هو ككوكب دري، لا يملك أحد اعتقاله، أو أسره، أو وضعه في اتجاه، كوكب يظل على الجميع حد سواء، ويمكن لهم أن يشيحوا عنه وجوههم باتجاه الظلمة، أو البرق الخاطف، أو الضوء الباهر، الذي يذهب بالأبصار. لكن هذا لن يغير من

حقيقة أن الكوكب الدري موجود، وأن نوره هناك ينير الدرب لمن يريد أن يهتدي فعلًا.

يمكن لمدافع نابليون أن تدك أنف أبي الهول ولو مجازًا، يمكن لها أن توجَّه باتجاه ذلك الكوكب الدري.

لكن لا يمكن لها أن تطاله.

***

وإذا كان لا بد من زمان ومكان معين نؤرخ به لعصر التنوير الحقيقي، فلا بد أن نقر أنه ذلك العصر الذي شهد ولادة أمتنا حقًّا، في ذلك الغار الذي تنزَّل فيه النور للمرة الأولى.

ومنه انطلق رويدًا رويدًا، ليعيد صياغة العالم، ويجعله كله كوكبًا دريًّا.

لقد حدث ذلك حقًّا، وكان ذلك هو عصر التنوير حقًّا.

***

فما الذي حدث بعدها؟

لم يحدث شيء. لقد تركنا الكوكب ومضينا، تركنا النور واستبدلنا به الظلمة. تخبطنا طويلًا في حلكة دامسة، ولأننا نسينا خواص النور، فقد تخيلنا أن ذلك الضوء الذي جاء مع نابليون كان نورًا، انبهرنا به ولم نعد نرى الطريق.

بعضنا على الأقل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

كان أنف أبي الهول ضحية تركنا النور أيضًا.

لدينا أيضًا حصتنا من الظلام محلي الصنع، لا يمكننا إنكار ذلك، وبمواجهة ذلك ينبثق النور أكثر وأكثر.

أحد المتطرفين، بعد قرون طويلة من انتشار الإسلام في مصر، قرر أن يقوم بما لم يفعله الصحابة والجيل الأول، متوهمًا أن أبا الهول كان صنمًا وأن وجوده يناقض التوحيد.

حاول أن يهدمه، ولم يقدر إلا على أنفه.

لدينا حصتنا من الظلام بلا شك. الظلام ليس بالضرورة يأتي من البر الآخر.

وأحيانًا يكون الظلام المحلي أسوأ وأشد.

لا بد من مواجهة ذلك أيضًا.

***

بونابرت، لك أن تصنع مجدك، مجد فرنسا.

لكن مجد فرنسا وأنوارها لا يعني أنها أنوار للجميع في كل مكان غزوته.

نعم تدفق النور من مواجهة ما جئت به، لكنه نور التحدي (الذي مثلته) والتحدي الذي نشأ عن ذلك.

نور لم يكن في أجندتك ونيتك، ولا لوم عليك.

آن لنا أن نعود إلى التنوير الذي تركناه، التنوير الحقيقي.

آن لنا الآن أن نجعل علاقتنا مع أدواتك صحية، بلا عقد انبهار ولا عقد رفض مطلق.

عندما يحدث ذلك يمكن أن نقول حقًّا.. **وداعًا بونابرت.**

يحدث في سوق النخاسة

أحكي لكم عن غلام صغير، ولد لأبوين عبدين، أيام الرق والعبودية، بيع في سوق النخاسة وهو صغير. لا يكاد يفقه شيئًا، ولا تحمل ذاكرته من الحادثة كلها غير ذكرى غائمة مغبشة.

قيل إن الحظ ابتسم له يوم اشتراه من سوق النخاسة سيد كريم لا يؤمن بالرق ولا العبودية، لم يعتقه بالضبط، على الأقل ليس فورًا، ولكنه اهتم بتعليمه، بالذات اهتم بتعليمه وإقناعه أنه حرٌّ، وأن حريته أهم ما لديه. بدا على الغلام السعادة والاقتناع، ولم يكن ذلك صعبًا أو عسيرًا. بعد فترة من التدريبات والاختبارات على الحرية، اقتنع السيد أن الغلام –وقد صار الآن فتى يافعًا– صار جاهزًا للحرية، فأعتقه سيده وودعه.

بعد فترة، مضى السيد مرة أخرى لسوق النخاسة، ليكرر التجربة مع غلام جديد، فوجد الفتى ذاته، وهو معروض للبيع. جنَّ جنون السيد، "***هل خُطفت؟ هل أغار على قافلتك قطاع الطرق؟***". أبدًا، ردَّ الفتى: **لقد جئت هنا بملء إرادتي.**

سأله السيد وهو لا يصدق: كيف **تتنازل عن أثمن ما لديك، عن حريتك؟**

أطرق الفتى وهو يغالب خجله وقال: سيدي! لقد **اكتشفت أن الطبع يغلب التطبع.**

صاح الرجل وهو يضرب كفًّا بكف: أي طبع! لقد أفهمتك أنك وُلدت حرًّا. أنت لا تكاد تذكر يوم اشتريتك من سوق النخاسة.

قال له الفتى، بصوت خفيض: نعم، لا أذكر ذلك، **لكني اكتشفت أن العبودية تجري في دمي.**

***

هل ستقول عنه إنه مجنون، سفيه، معتوه... إلى آخر هذه الألفاظ؟ كيف يتنازل عن حريته بعد عتقه؟

ربما. لكن هذا الفتى ليس شخصية خيالية بالضبط، ولا شخصية افتراضية تمامًا، ربما السياق يشوبه الخيال، **ولكن الشخصية بأساسها، بجوهر سلوكها، هي أقرب لنا مما نتخيل، بل إنها ربما تمثل الغالبية العظمى منا.**

ذلك الفتى الذي عرض نفسه للبيع في سوق النخاسة، يظهر لنا أحيانًا في المرآة، يشبهنا أحيانًا كما تشبه وجوهنا انعكاسها المباشر في المرآة.

***

كيف؟

ببساطة لأننا مثله، نولد ونحن عبيد.

ثم يأتي من يقول لنا: إن زمن العبودية ولى، وإن عصر الحرية أهم وأقدس ما يملكه إنسان، قد جاء، فنصدق جذلين، سعداء بأننا قد ولدنا في هذا العصر، ونلنا أثمن ما يمكن أن يناله إنسان.

ثم تتوالى الأحداث، ويؤدي شيء إلى آخر، ونجد أنفسنا –بطريقة أو بأخرى– في سوق ما للنخاسة، ولو بصيغة معاصرة ومتمدنة منه.

بطريقة أو بأخرى، نجد أنفسنا ونحن عبيد لشيء ما، لأحد ما، ليس بالضرورة صنم تقليدي في هيكل، بل ربما لفكرة، لعقيدة، لنمط حياة.

لكن لماذا يحدث ذلك أصلًا؟ لماذا والحرية هي أهم ممتلكاتنا؟ أو هكذا قيل لنا على الأقل.

لأنه، وكما قال ذلك الفتى، بالنيابة عنا، بالأصالة عن نفسه: **الطبع يغلب التطبع.**

وكما أضاف لاحقًا: **إن العبودية تجري في دمائنا.**

***

نُولد ونحن نمتلكها.

إنها القاسم المشترك الأكبر بين بني الإنسان جميعًا. لا نعرف موضعها بالضبط، ربما في جيناتنا، ربما في أدمغتنا، ربما فيما يسمى أرواحنا، أو نخاعنا، أو في ذلك كله، وبين ذلك كله، لكننا نملك هذا **الاستعداد الفطري لكي نكون عبيدًا**، نملك في داخلنا هذه القابلية على العبودية. التي تجعلنا مؤهلين –من دون وعي غالبًا– وبطريقة لا إرادية، لكي نكون عبيدًا لهذا الشيء أو ذاك. وربما بينما نتحدث بفخر عن كوننا أحرارًا.

إننا عبيد والعبد هو الاسم الأول لكل منا، اسم ما قبل الولادة، وما قبل شهادة الولادة. وما قبل أن يختار لنا آباؤنا أسماءنا الأنيقة الجميلة.

نحمل عبوديتنا فوق ظهورنا ونمضي في دروب الحياة، ربما غير مدركين لها، وغير مدركين أننا سنتصرف بناءً عليها.

***

وأنا هنا لا أقصد العبودية لله، بل أقصد مطلق العبودية، القابلية للعبودية لشيء ما، إنها تلك القابلية الأصيلة، التي **تجعلنا في حالة نقص كامن لأن نكون عبيدًا لشيء ما.**

يقال إن الإنسان سمي كذلك بسبب حاجته إلى الأنس، إلى كونه كائنًا اجتماعيًّا، لا يمكن أن يعيش منعزلًا، حتى لو كان حي بن يقظان أو روبنسون كروزو. هذه الحاجة أصيلة أيضًا، ولا جدال فيها.

لكن لفظ (العبد) يعبر عن حاجة أعمق في النفس البشرية، وربما هي أخفى لأنها أعمق.

إنها حاجة الإنسان إلى أن يكون عبدًا لشيء ما.

***

خياراتنا في الحياة لو جُردت من تفاصيلها لكانت محدودة جدًّا، بل ربما تقلصت لتكون **خيارين اثنين لا ثالث لهما.**

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29].

ليس هناك سوى هذين.

إما أن نكون ملكًا لأكثر من جهة، حيث تأخذنا قابليتنا للعبودية **إلى التشتت هنا أو هناك، والتفتت هنا أو هناك،** سواء كان هذا إلهًا، أو مجموعة آلهة أو رجلًا صالحًا أو غير صالح يتعبد له البعض، أو وثنًا، أو أيديولوجية، أو نمط حياة، أو مزيجًا من ذلك كله.

وإما أن نحسم أمرنا **لجهة واحدة، تكون عبوديتنا لها حصرًا وقطعًا.**

ليس من خيار ثالث.

ليس من رجل غير مملوك، ليس هناك من رجل (حر) حقًّا. ليس هناك من إنسان يمكن أن يكون حرًّا بهذا المعنى، إنه عبد بالتعريف، كل ما في الأمر أنه قد يكون عبدًا مقرًّا بعبوديته، معترفًا بها، أو أنه غير مدرك لها، يمارسها دون وعي. ولا يغير ذلك شيئًا من حقيقة عبوديته.

واحد من اثنين. بلا خيار ثالث.

***

ماذا عن **الحرية الشخصية** إذن؟ ماذا عن أهم ما أنتجته العصور الحديثة وأهدته للإنسان؟ ألم تخلص الإنسان من عبوديته؟ ألم تخرجه من عصر الرق والعبودية إلى عصر الحرية؟ كيف يمكن لأحد أن يعود أدراجه ليقول إننا كلنا عبيد؟

الحرية الشخصية كمبدأ أمر لا جدال فيه. حق من حقوق البشر جميعًا. حق الاختيار الشخصي وحرية الإرادة الإنسانية. الحق في اتخاذ أي موقف، مع تحمل كل النتائج عن هذا الخيار، في الآخرة على الأقل.

لكن هذا المبدأ البديهي تحول من بساطته الفطرية تحول إلى أيديولوجية، ثم تغولت هذه الأيديولوجية إلى أن تصبح ما يشبه الدين الجديد الذي يبرر كل شيء -تقريبًا- تحت شعارات الحرية الشخصية.

تحولت إلى وثن خبيث مخادع.

(وثن) الحرية الشخصية، وخبثه يتركز في إيهامه لنا أننا أحرار، بينما ننصاع ونخضع له.

إنه **اتخاذ الهوى إلهًا**، قد يكون هذا الهوى مجموعة أهواء، رغبات شخصية، نمط حياة... إلخ.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23].

أفرأيت؟

نعم، لقد رأيت. رأينا جميعًا. إنهم مقتنعون تمامًا أنهم إنما يؤدون ما يريدون فعله حقًّا، لكنهم في الحقيقة عبيد لإله الهوى، **الذي عدل من اسمه، لضرورات الترويج والرواج، وصار اسمه إله «الحرية الشخصية»**.

***

في النهاية، كلنا ذلك الفتى الذي اكتشف أن العبودية تجري في دمه.

عملية البيع والشراء ستحدث سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه. إما أن يكون عقد شراء بثمن بخس دراهم معدودة، نبيع فيه أرواحنا من أجل متعة عابرة، وإما نمط حياة يكرس المتع العابرة ويؤدلجها.

أو من أجل فكر برَّاق خدَّاع وإن كان مزيفًا.

أو أن يكون عقد الشراء الصحيح، الذي توجه فيه العبودية الكامنة فينا لمستحقها الأوحد والوحيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: 111].

***

حرية واحدة إذن، في هذه الدنيا.

حرية أن تختار عبوديتك، من بين العبوديات التي تُعرض عليك.

حرية واحدة فقط، هي أن تختار العبودية الصواب، العبودية التي خُلقت من أجلها، العبودية التي تكملك.

أو أن تختار تلك العبوديات الأخرى، التي لا يعترف معظمها بأنها عبودية، وأنها تستعبدك، لكن ذلك لا يغير شيئًا من حقيقتها.

***

ما دام لا مفر من أن أكون عبدًا.

فأنا أختار عبوديتي لك يا إلهي.

ما دام لا مفر، ما دامت تجري في دمي، ما دامت حقيقتي الأعمق، فأنا أتوج ذاتي بالالتحام بحقيقتي تلك، أوجهها لك.

بعبوديتي لك أكتمل، بل أكون. ومن دونها أتشتت بين النخاسة، وأباع وأُشترى بأبخس الأثمان.

حريتي الوحيدة التي أملكها، أنفقها.. في أن أكون عبدك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عاجل
سري
وشخصي

مـن معجـزات القرآن المسـتمرة أنـه لا يكف أبـدًا عن التوغـل في دواخلنـا ومجاهلنا النفسـية، يحفـر فيها وفي أوجاعنـا السرية ومخاوفنـا الخفية التي لم نـعترف بها لأحد، يقتحمهـا ويضعنـا أمـام مـرآة الحقيقـة التي تعودنا أن نشـيح النظر عنها لكـيلا ندفع ثمن المواجهة.

لكـن أول خطوة في حل هذه المشـكلات هي مواجهتهـا والوعي بها، يقـدم لنا القرآن مرآة المواجهة لا للندب والبكاء بل لكي تكون خطوة نحو العلاج.

هـذه الرسـائل كُتبت نتيجـة المواجهات مـع مرآة الحقيقـة القرآنية، أخـذت من بين سـطورها وهوامشـها وإرهاصاتهـا ولفتاتها، لا تدعي هذه الرسـائل أن فيهـا العلاج أو أنهـا الحق المطلـق، لكنها على الأقل ما يأتي في ذهن أي مسـلم يعيـش واقعه المعاصر ويتفاعل معه.

ولأنها كذلك، فهي رسائل عاجلة، سرية وشخصية.

أعمـال أخـرى للكاتب

غـلاف: محمود هشام

مكتبة
t.me/soramnqraa

عصير الكتب
www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb